مؤمن آل فرعون

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار ابن كثير

مؤمن آل فرعون في القرآن الكريم

تَأْلِيفُ
د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي

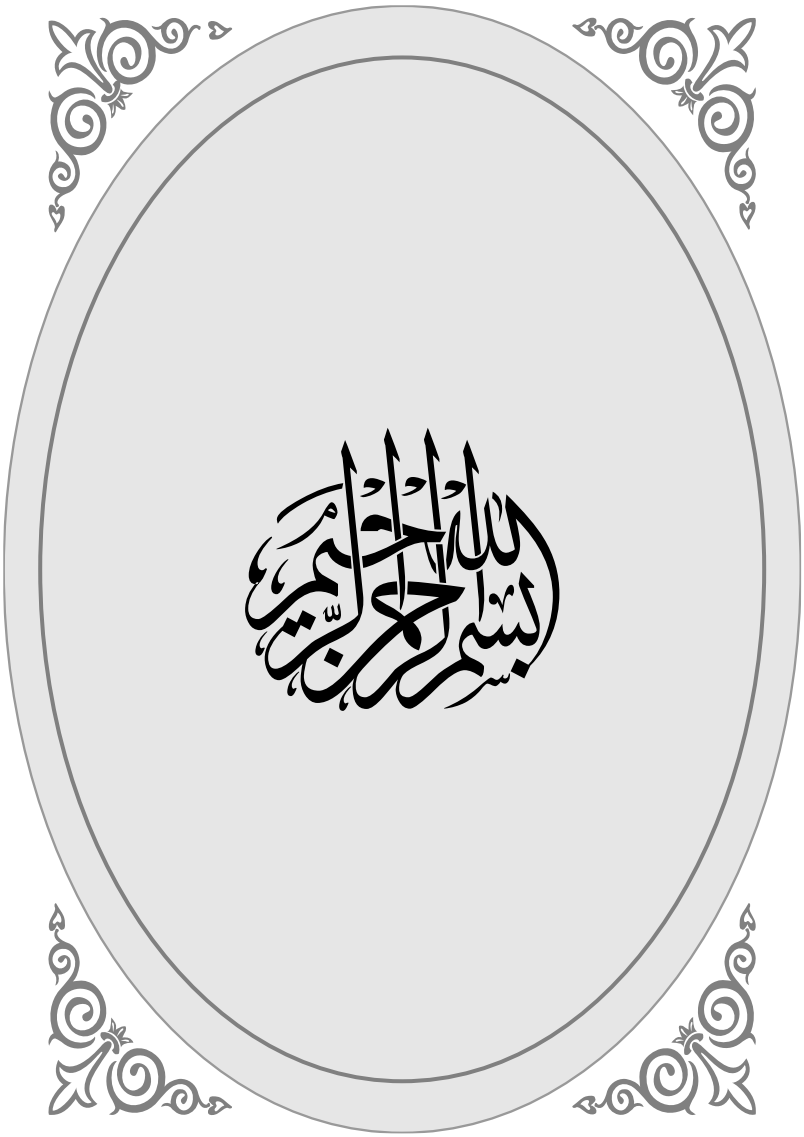
بسم الله الرحمن الرحيم

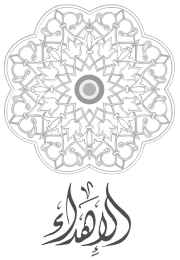

الإهداء

إلى الراغبين والمتعطشين لمعرفة سير "الأنبياء.

إلى الباحثين عن الحقيقة.

إلى العقول النيرة وأصحاب الفطرة السليمة والأفئدة الصافية من بني الإنسان.

أهدي هذا الكتاب؛ سائلاً المولى عزَّ وجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

قال تعالى: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف: 110].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: 102].

﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: 1].

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾**﴾ [الأحزاب: 70 - 71].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

أخذت قصة كليم الله موسى (عليه السلام) النصيبَ الأكبر من الذِكر في كتاب الله سبحانه وتعالى، وذكرت في سور كثيرة، وكانت كل سورة تَعرِضها بشكل مختلف عن الآخر، ولغايات مختلفة عن غيرها، وقد تميّزت قصة موسى (عليه السلام) في سورة غافر بِذكر قصّة رجل (مؤمن آل فرعون) الذي دافع عن رسول الله ونبيه موسى (عليه السلام) من بطش فرعون وملئِه، وقام خطيباً لقومه، محاوراً لهم بحججه العقلية والمنطقية، بعدما كان يكتم إيمانه خوفاً على نفسه من الهلاك.

وقف مؤمن آل فرعون موقفاً شجاعاً أَظهر فيه قوة اِنتمائه بالأصل لفرعون وآله وعصبته، وأبدى حرصه، وخوفه على مصالح قومه من عواقب تحدي موسى (عليه السلام)، ومجابهته بقوة الدولة المستبدة، والسلطان الفرعوني، وفي الوقت ذاته أبدى اعترافاً بموسى (عليه السلام)، ونبوءَته بعدما كان يكتم ذلك حرصاً على نجاح مهمته في الدعوة إلى الله.

بدأ التمهيد في سورة غافر لذكر مؤمن آل فرعون عند ذكر الله سبحانه قصةَ الإيمان والطغيان ممثلة في دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار، ففرعون يريد أن يقضي على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام، فتبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى في غيرها من السور (كما ذكرنا) ألا وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون – يخفي إيمانه – يصدع بكلمة الحق في لطف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، وقد ذكر الله سبحانه مشاهد من محاججته لقومه مليئة

بالبراهين العقلية والحجج المنطقية، ثم تنتهي القصة بعلاقة فرعون الطاغية الجبار بالغرق في البحر مع أعوانه وأنصاره، ونجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين.

1- التعريف بالكتيب وأصله:

يعدّ هذا الكتيّب: "مؤمن آل فرعون" جزءًا من كتاب "موسى كليم الله (عليه السلام)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين"، والذي يعتبر من موسوعة "نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام"، والذي أعان الله عزّ وجل على إتمامها، إذ عِشت معها سنين عدّة باحثاً، ومتعلّماً، ودارساً في هذه المدرسة الربّانيّة العظيمة، أيّ مدرسة القصص القرآني وسير الأنبياء والمرسلين في القرآن الكريم.

أُتمّت – بفضل الله- الموسوعة بكتاب: موسى عليه السلام، وهي كالآتي:

1. قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)
2. نوح عليه السلام والطوفان العظيم، ميلاد الحضارة الإنسانيّة الثانية.
3. إبراهيم عليه السلام "خليل الله، وداعية التوحيد ودين الإسلام، والأسوة الحسنة".
4. موسى عليه السلام كليم الله، عدو المستكبرين، وقائد المستضعفين.
5. عيسى عليه السلام "الحقيقة الكاملة".
6. السيرة النبويّة: عرض حقائق وتحليل أحداث.

وفي ما يخص كتاب "موسى كليم الله (عليه السلام)؛ عدو المستكبرين وقائد المستضعفين"، قسّمته إلى ستّة فصول، وقد بحثت في الفصل الأول جذور بني إسرائيل التاريخية وحياتهم في مصر

وفي الفصل الثاني: موسى عليه السلام: اسمه ونسبه ومولده ومكانته بين الأنبياء والمرسلين، وعن السّور التي ذُكر فيها موسى وهارون في القرآن الكريم والتي ذُكر فيها اسم فرعون والتي ذُكر فيها بنو إسرائيل واليهود.

وفي الفصل الثالث: قصة موسى (عليه السلام) في سورة القصص وطه والشعراء والنمل ويونس وهود وغافر والزخرف والدخان والنازعات. وفي الفصل السادس من هذا الفصل تحدثن عن قصة موسى (عليه السلام) في غافر والزخرف والدخان والنازعات، ففي سورة غافر كان الحديث عن مؤمن آل فرعون في دفاعه عن موسى (عليه السلام)، وأساليبه العقلية والعاطفية والدعوية في دعوة قومه للتوحيد والإيمان بموسى (عليه السلام)، وقمتُ بمقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق رضي الله عنه في الدفاع عن دعوة التوحيد ودعوة الناس إليها، وكيف استخدم مؤمن آل فرعون أساليب الدعوة، وانتقل في مراحلها من السرية إلى المجاهرة، ووظّف سنن الله في خطابه للعقول والقلوب، وما هو مصيره ومصير آل فرعون في النهاية كما جاء في سورة غافر.

وفي الفصل الرابع كانت قصة موسى (عليه السلام) في سورة الأعراف وإبراهيم عليه السلام.

وفي الفصل السادس: أسباب هلاك فرعون وقومه، وفضائل موسى (عليه السلام) ووفاته.

2- تعريف عام بسورة غافر

لأننا نتحدث عن مؤمن آل فرعون في سورة غافر، فنذكر تعريفاً مختصراً عن السورة:

تسمى هذه السورة سورة غافر؛ لافتتاحها بتنزيل القرآن من الله غافر الذنب وقابل التوب، والغافر من صفات الله وأسمائه الحسنى، وتسمى أيضاً سورة "المؤمن" لاشتمالها على قصة مؤمن آل فرعون[1].

وسورة غافر والحواميم السبع مكية، فهي تعنى بأصول العقيدة كسائر السور المكية، لذا جاءت آياتها لإثبات العرش وإنها الصراع بين أهل الحق وبين أهل الباطل أو فريق الهدى وفريق الضلال، وفد ابتدأت بإعلان تنزيل الكتاب الكريم من الله المتصف بالصفات الحسنى، وهاجمت الكفار الذين يجادلون بالباطل، ثم وصفت مهام ملائكة العرش وأخبرت عن طلب أهل النار الخروج منها لشدة العذاب ورفض هذا الطلب، وأقامت الأدلة على وجود الله القادر وخوّفت من أهوال القيامة وأنذرت الكفار من شدائد ذلك اليوم.

ثم لفتت الأنظار لموضع العبرة من إهلاك الأمم العابرة وهو كفرهم بالآيات البيّنات التي جاؤوا بها، وخصّت بالذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون وهامان وقارون، وما دار من حوار بين فرعون وقومه وبين رجل من آل فرعون يكتم إيمانه، وما فعله فرعون الطاغية من قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم خشية انتشار الإيمان في قومه، وانتهاء القصة بهلاك فرعون بالغرق في البحر مع جنوده، ونجاة موسى وقومه، جند الإيمان في ذلك العصر وتلك قضية الإيمان والطغيان.

وقد أردف ذلك بإعلان خذلان الكافرين ونصر الرسل والمؤمنين نصراً مؤزراً في الدنيا والآخرة، وختمت القصة بأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر موسى وغيره من أولي العزم، ثم أوردت السورة الأدلة الكونية على وحدانية الله وقدرته وضربت المثل للمؤمن بالبصير وللكافر بالأعمى؛ فالمؤمن نيّر القلب والبصيرة بنور الله والكافر

([1]) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط2، 1418هـ/ 1998م، (٦٨/٢٤).

مظلم النفس يعيش في ظلمة الكفر، وأتبعت ذلك ببيان نعم الله على عباده من الأنعام والفلك وغيرها.

وختمت السورة بما يؤكد الغرض المهم منها: وهو الاعتبار بمصرع الظالمين المكذبين وما يلقونه من أصناف العذاب ومبادرتهم إلى الإيمان حين رؤية العذاب ولكن لا ينفعهم ذلك، فإن سنة الله الثابتة ألا يقبل إيمان اليأس أو حال رؤية البأس[2].

وبعد:

تناولت الحديث في هذا الكتيّب عن مؤمن آل فرعون في دفاعه عن موسى (عليه السلام)، وأساليبه العقلية والعاطفية والدعوية في دعوة قومه للتوحيد والإيمان بموسى (عليه السلام)، وقمتُ بمقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق رضي الله عنه في الدفاع عن دعوة التوحيد ودعوة الناس إليها، وكيف استخدم مؤمن آل فرعون أساليب الدعوة، وانتقل في مراحلها من السرية إلى المجاهرة، ووظّف سنن الله في خطابه للعقول والقلوب، وما هو مصيره ومصير آل فرعون في النهاية كما جاء في سورة غافر.

إنني أحمد الله الكريم المنّان أن وفّقني للاهتمام بهذا المجال المعرفي الزاخر والتوسّع في سيَر هُداة البشريّة، وأن أنهل من المصادر والدراسات النافعة، وأحمدُه وأشكره على نِعَمه التي لا تُعدّ ولا تُحصى، وأسأله أن يمدّني بتوفيقه وتسديده وتأييده في الكتابة المنهجيّة النافعة لبقيّة قصص الأنبياء والمرسلين من كتابه العزيز، وأن يلقى ما أكتبه القبول بين الناس، ويجعلها سبباً في هداية الكثير من خلفه، وأن تُسهم هذه الكتابات في نشر توحيد الله عزّ وجل، وإفراده بالعبادة وتقديم نماذج رفيعة للمرجعيّة العقديّة والروحيّة والأخلاقيّة والسلوكيّة والفكريّة.

([2]) تفسير المنير، (٢٤/٧٠).

وإن الفضـلُ لله عزّ وجل من قبل ومن بعد، فأسـأله سـبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيّين والصّديقين والشهداء والصالحين، ولا يسـعُني في مرحلة الانتهاء من هذا الكتاب إلا أن أقف بين يدي الله عزّ وجل بقلبٍ خاشـعٍ منيب، معترفاً بفضـله وكرمه، ومتبرّئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسـكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضّـل. وربيَ الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفّق، فلو تخلّى عني ووكّلني إلى عقلي ونفسـي لتبلّد مني العقل، وغابت الذاكرة ويَبسـت الأصـابع، وجفّت العواطف، وتحجّرت المشـاعر، وعجزَ القلم عن البيان.

اللهم اجعله لوجهك خالصـاً، ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقَبول والنفع العظيم.

كما أرجو من كل من يطّلع على هذا الكتاب ألا ينسـى العبد الفقير إلى عفو ربّه ومغفرته ورحمته ورضوانه من الدعاء، قال تعالى:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـالِحًا تَرْضَـاهُ وَأَصْـلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْـلِمِينَ﴾ [الأحقاف:١٥].

والحمد لله رب العالمين.

المبحث الأول: الآيات الممهدة لذكر قصة مؤمن آل فرعون:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر:٢٣-٢٧].

لما سلّى الله تعالى رسوله بذكر عاقبة الكفار الذين كذبوا بالأنبياء قبله وبمشاهدة آثارهم، سلّاه أيضاً بذكر قصة موسى عليه السلام التي دلّت على أنه مع قوة معجزاته، كذّبه فرعون وهامان وقارون، وقالوا عنه: هو ساحر كذاب ولكن في النهاية تنتصر عليهم وتلك بشارة لنبينا ﷺ بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران عليه السلام [3].

١-قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [غافر:٢٣].

يقول الله تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة، كما جرى لموسى بن عمران، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات والدلائل الواضحات، ولهذا قال: ﴿بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾، والسلطان هو الحجة والبرهان [4].

([3]) تفسير المنير، (١٠٤/٢٤).

([4]) تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (774هـ)، بيروت، دار ابن حزم، 1420هـ/ 2000م، (١٢٨/٧).

٢- قوله تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤].

- ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾: هو ملك القبط بالديار المصرية.
- ﴿وَهَامَانَ﴾: وهو وزيره في مملكته.
- ﴿وَقَارُونَ﴾: وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة [5]، وكان قارون من بني إسرائيل مع فرعون وسمع موسى عليه السلام وهو يقول له أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم، وسمعهم وهم يقولون اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه وهم من قومه، وهذا دليل الانسلاخ عن قيم الحق والعدل والتورط في الظلم مع النظام الفرعوني الفاسد عقائدياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً، كما أن فرعون كان يهمه الولاء المطلق لشخصه وهذا ما كان من قارون لفرعون.

وقد كان فرعون رأس الفتنة ومدعي الألوهية معه هامان لأنه كان وزيره ومساعده، وقارون لأنه كان صاحب خزانته، فكان الثلاثة شركاء، لذلك اشتركوا أيضاً في اتهام موسى: ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٤][6]، وقد كان فرعون يعتمد على قوة هامان الإدارية وعلى قوة قارون المالية، ولهذا نصّ على إرسال موسى لهؤلاء الثلاثة الذين كانوا يمثلون أعمدة نظام الحكم في مصر، ولما خاطبهم موسى وقدّم لهم الآيات اتهموه بالسحر وبالكذب، اتهموه بأنه ساحر كذاب ولم يكتفوا بتكذيبه واتهامه، بل تواصوا على إيذاء أتباعه [7].

([5]) المصدر نفسه، (١٢٨/٧).

([6]) تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط1، 1992م، (١٣٣٥٣/٢١).

([7]) القصص القرآني؛ عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دمشق، دار القلم، ط4، 2016م. (٤٨٤/٢).

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٢٥].

وهذا قاطع في أن التهديد بقتل الأبناء واستحياء النساء كان خاصاً بالذين آمنوا معه وأن السلوك الشيطاني الأول الذي كان ذبح أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، والذي كان زمن ولادة موسى قد انتهى، وصار خاصاً بالذين آمنوا وليس هذا استنتاجاً وإنما هي دلالة الكلام [8].

أ- قال ابن كثير: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ أي: بالبرهان القاطع الدال على أن الله تعالى أرسله إليهم ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾ وهذا أمر ثانٍ من عند فرعون بقتل ذكور بني إسرائيل، أما الأول: فكان الأجل الاحتراز من وجود موسى، أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم، أو المجموع الأمرين، وأما الأمر الثاني: هو إهانة هذا الشعب، وذلك حتى يتشاءموا بموسى عليه السلام، ولهذا قالوا: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩].

قال قتادة: هذا أمر بعد أمر، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني إسرائيل لئلا يُنصروا عليهم إلا ذاهب وهالك في ضلال [9].

ب- قال محمد متولي الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٢٥]، نعم كان هذا كيداً من فرعون وأعوانه، لكن هل أنفذه كيده ببني إسرائيل؟ لا بل ردّ الله كيده عليه وباء بالضلال والخسران [10].

([8]) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1442هـ/ 2021م، ص٤٤٧٤.

([9]) تفسير القرآن العظيم، (١٢٨/٧-١٢٩).

([10]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٥٣/٢١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

ويبدو من قوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ أن رأيه هذا كان يجد ممانعة ومعارضة -من ناحية أخرى- كأن يقال مثلاً: إن قتل لا ينهي الإشكال، فقد يوحي هذا للجماهير بتقديسه واعتباره شهيداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذي جاء به، وبخاصة بعد إيمان السحرة في مشهد شعبي جامع وإعلانهم سبب إيمانهم وهم الذين جيء بهم ليروا عمله ويناوئوه، وقد يكون بعض مستشاري الملك أحسن في نفسه رهبة أن ينتقم إله موسى له ويبطش بهم وليس هذا ببعيد، فقد كان الوثنيون يعتقدون بتعدد الآلهة ويتصورن بسهولة أن يكون لموسى إله ينتقم له ممن يعتدون عليه، ويكون قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ رداً على هذا التلويح وإن كان لا يبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون كانت تبجحاً واستهتاراً لقي جزاءه في نهاية المطاف كما سيجيئ، ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾، فهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال الوثني عن موسى رسول الله عليه السلام ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾؟

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح؟ أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل؟ أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين [11].

([11]) في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط32، 1423هـ/ 2003م، (٥/٣٠٧٨).

٥- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٧].

فأما موسى عليه السلام فالتجأ إلى الركن الركين والحصن الحصين، ولاذ بالجناب الذي يحمي اللائذين، ويجير المستجيرين، قالها واطمأن وسلم أمره إلى المستعلي على كل متكبر، القاهر لكل متجبر، القادر على حماية العائذين به من المستكبرين، وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد، كما أشار إلى عدم الإيمان بيوم الحساب، فما يتكبر متكبر وهو يؤمن بيوم الحساب، وهو يتصور موقفه يومئذ خاسراً خاشعاً خاضعاً ذليلاً، مجرداً من كل قوة، ما له من حميم ولا شفيع يطاع [12].

أ- قال الشنقيطي: ذكر الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن نبيه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلان، عاذ بربه أي: اعتصم به وتمنع كل متكبر أي متصف بالكبر لا يؤمن بيوم الحساب أي لا يصدق بالبعث والجزاء وسبب عياذ موسى بربه المذكور أن فرعون قال لقومه: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾.

فعياذ موسى المذكور بالله إنما هو في الحقيقة من فرعون وإن كانت العبارة أعم من خصوص فرعون، لأن فرعون لا شك أنه متكبر لا يؤمن بيوم الحساب فهو داخل في الكلام دخولاً أولياً وهو المقصود بالكلام وما ذكره -جل وعلا- في آية المؤمن من هذه، من عياذة موسى بالله من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب كفرعون وأعوانه

([12]) المصدر نفسه، (٥/٣٠٧٨).

وقومه، ذكر نحوه في سورة "الدخان" في قوله تعالى عن موسى مخاطباً فرعون وقومه: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠][13].

ب- قال الرازي: المعنى أنه لم يأت في دفع شره إلا بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله لا جرم، صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية، واعلم أن هذه الكلمات التي ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿إِنِّي﴾ تدل على التأكيد، فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر في دفع الشرور والآفات عن النفس، والاعتماد على الله والتوكل على الله تعالى.

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ المعنى: كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقّاني، ومن الآفات وقاني وأعطاني نعماً لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب ألا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا حفظ الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به من الاستعانة بالله والمعنى فيه أن الأرواح الظاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوي ذلك التأثير جداً وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات.

([13]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت، 1393هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت)، (٣٨٣/٦).

الفائدة الخامسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة حتى يدخل فيه كل من كان عدواً، سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها.

الفائدة السادسة: أم الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران أحدهما: كون الإنسان متكبراً قاسي القلب، والثاني: كونه منكراً للبعث والقيامة، وذلك لأن المتكبر القاسي، قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه كان مقراً بالبعث والحساب، صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجري على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء والمانع هو الخوف من السؤال والحساب زائلاً، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء.

الفائدة السابعة: أن فرعون لما قال: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾، قال على سبيل الاستهزاء ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾، فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء، هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني وسترى أن ربي كيف يقهرك وكيف يسلطني عليك، واعلم أن من أحاط عقله بهذه الفوائد علم ألا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله والله أعلم [14].

وعن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: "اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم" [15]، وفي هذا الحديث إيماء إلى دواء من

([14]) مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (606هـ)، تحقيق: سيد عمران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ، ودار الكتب العلمية، 2020م، (٢٧/٥٦-٥٧).

([15]) مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 2008م، (٤/٤١٤-٤١٥).

وقع في كيد الأعادي وترياق من أصابته سموم الأفاعي الحساد البواغي، وذلك الاعتصام بحبل الله سبحانه، والركون بالقلب إلى الرب [16].

وقال أيضـــاً: وفيه التحصـــن بأسماء الله تعالى واللوذ به واللجوء إليه تعالى فيما ينزل بالإنسان مما يشفق منه، وأنه لا ينافي التوكل [17].

([16]) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت: 1057هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط4، 2004م، (٢/٤٧٨-٤٧٩).

([17]) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط1، 1435هـ/ 2014م، (٢٩/٣٣٤).

المبحث الثاني: ذكر مؤمن آل فرعون وموعظته لقومه ومحاججته لهم بالبراهين والحجج المنطقية:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر:٢٨-٣٥].

بعد أن حكى الله تعالى عن موسى عليه السلام أنه ما زاد في دفع شر فرعون الذي عزم على قتله، على الاستعاذة بالله، أبان الله تعالى أنّه قيّض له رجلاً من آل فرعون يدافع عنه لتسكين الفتنة وإزالة الشر، واشتمل دفاعه على أمور ثلاثة كبرى هي:

– الأولى: استنكار قتل موسى المؤمن بربه، المستضعف مع قومه في مواجهة قوم فرعون.

– الثاني: تحذيرهم بأس الله في الدنيا والآخرة في المكذبين للرسل وهم جماعات الأحزاب كقوم نوح وعاد وثمود.

– الثالث: تذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف عليه السلام من تكذيب رسالته ورسالة من بعده [18].

١–قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر:٢٨] .

هذه الآيات تبين أن رجلاً مؤمناً من آل فرعون وقع الحق في قلبه، ولكنه كتم إيمانه، انتدب يدافع عن موسى وعمله على دفع القوم عنه وسلم في حطابه لفرعون وملئه مسالك شتى وتدسس إلى قلوبهم بالنصيحة وأشار حساسيتها بالتخويف والإقناع وجال هذا الرجل جولة ضخمة مع المتآمرين من فرعون وملئه، واستخدم منطق الفطرة والعقل والحكمة في حذر ومهارة وقوة كذلك [19].

أ–﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾:أخبر القرآن عن مؤمن آل فرعون بأنه ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، والوصف بالرجولة هنا وصف تكريم وتشريف ويراد بالرجولة المعنى المادي والمعنى النفسي.

المعنى المادي: وهو كونه رجلاً فهو رجل ذكر ليقابل الوصف المقابل في الجنس الآخر، يقال: هذا رجل ذكر وهذه امرأة أنثى.

([18]) تفسير المنير، (١١٢/٢٤).

([19]) في ظلال القرآن، (٣٠٧٩/٥).

والمعنى النفسي: وه كونه يقف مواقف الرجال، القائمة على قوة الإرادة والعزيمة والهمة والجرأة والشجاعة والإقدام، فهذه المعاني تحتاج إلى رجولة، ولا يقدر عليها كل الذكور إنما يقدر عليها الرجال من الذكور، وكل رجل ذكر لكنه ليس كل ذكر رجلاً، فهناك ذكور لا يعرفون معاني الرجولة ولا يقفون مواقف الرجال.

– إنه ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾: والتنوين هنا مقصود، إنه تنوين للتكريم، كما أنه تنوين للإبهام، وهذا الإبهام دعوة لنا كي لا نحاول تحديد وتعيين اسمه وتحديد اسمه لا يقدم فائدة جديدة ولا يضرّ الجهل به، ووصفه القرآن بأنه: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: وهذا تحديد قرآني لنسبه، وهو رد على من يزعم أنه "إسرائيلي" وكونه من آل فرعون يعني أنه كان من قادة النظام الفرعوني ومن المقرّبين عند فرعون والمتنفذين في قومه [20].

ب– ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾: وإيمان هذا القائد بموسى عليه السلام شهادة لموسى في نجاحه الدعوي، حيث تمكن من إيصال الدعوة إلى هذا الزعيم الفرعوني وإقناعه بالدخول في دين الله، كما أن إيمانه شهادة له، فرغم أنه مقرّب عند فرعون إلا أنه فتح قلبه للإيمان وأنواره فاختار ما عند الله، إن البيئة الفرعونية الكافرة لم تفسده ولم تطمس على فطرته، إنه آمن بالله وكفر بفرعون وهذا دليل على جرأته وشجاعته، فهو يعلم من هو فرعون وما هو بطشه وطغيانه وع ذلك آمن بالله واستعد لدفع ثمن هذا الموقف.

وقد أخبر القرآن أن هذا الرجل كان: ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ ويشير إلى هذا أن دعوة موسى في بعض مراحلها كانت سرية، وأن بعض المؤمنين به كانوا "سريّين" يكتمون إيمانهم.

لقد كانت دعوة موسى عليه السلام تأخذ جانبين:

([20]) في ظلال القرآن، (٣٠٧٩/٥).

الأول: الجانب العلني: وهو المتمثل في إمام الدعوة موسى عليه السلام، حيث كان يتحرك تحركاً علنياً ويدعو ويحاور ويناقش فقد قابل فرعون، وكانت المباراة في يوم الزينة بينه وبين السحرة، وتحدّث مع الملأ من قوم فرعون.

الثاني: الجانب السري: حيث كان بعضهم يومنون به ويكتمون إيمانهم وقد عرفنا ثلاثة من هؤلاء كانوا مقربين من عند فرعون:

- امرأة فرعون.
- والذي أخبر موسى عن ائتمار الملأ به لقتله، وهناك من العلماء من يقول إنه مؤمن آل فرعون.
- ومؤمن آل فرعون.

إن كتم هؤلاء وغيرهم لإيمانهم دليل على جواز كتمان إيمان بعض المؤمنين في بعض الحالات الخاصة وعلى جواز سرية الدعوة في بعض الظروف والأجواء، فإذا ما أسرّ بعض الدعاة دعوتهم وإذا ما كتم بعضهم انتماءهم فلابد أن يعلن آخرون إيمانهم، وأن يظهروا دعوتهم ليعرف الناس الدعوة من خلال بعض "رموزها" وقادتها، فيقتدوا بهم ويستعد هؤلاء المجاهدون لدفع الثمن الباهظ المترتب على ذلك، ففي قصة مؤمن آل فرعون كان موسى عليه السلام يجهر بإعلان دعوته وإظهار إيمانه، بينما كان مؤمن آل فرعون يكتم إيمانه [21].

ومع أن هذا الرجل المؤمن كان يكتم إيمانه إلا أنه اضطر الآن إلى إظهار إيمانه، إن حياة موسى عليه السلام في خطر، وإن فرعون يريد أن يقتله ويمكن لهذا القائد الفرعوني أن يحول دون ذلك إلا بإظهار إيمانه، وإذا أظهر إيمانه سيكشف أوراقه أمام فرعون، فماذا يفعل؟ هل يبقى كاتماً لإيمانه حريصاً على مركزه ومنصبه ولو قتل موسى

([21]) القصص القرآني، المصدر السابق، (٢/٤٩١).

فعليه رحمة الله؟ أن يقوم بواجبه وينتصر لموسى عليه السلام ويدافع عنه ويظهر إيمانه وليكن بعد ذلك ما يكون؟

أخذ بالخيار الثاني المتفق مع إيمانه ورجولته وشجاعته وقدم مصلحة الدعوة على مصلحته هو، بل إن مصلحته هو لا تكون إلا مع مصلحة الدعوة، وهذا درس بليغ للدعاة في وجوب تقديم مصلحة الدعوة على مصالحهم الشخصية المادية وفي وجوب التضحية بالمنافع الشخصية من أجل دعوتهم ودينهم، وعندما اضطر مؤمن آل فرعون للدفاع عن موسى عليه السلام والوقوف أمام فرعون، خطا خطوات منهجية في غاية الحكمة والترتيب والتخطيط، وقدّم "بياناً" دعوياً حكيماً، وتمكن من إحراج فرعون وهزيمته وأقام الحجة عليه وعلى قومه، وكان في ذلك كله ناجحاً نجاحاً كبيراً، فقد أنكر الرجل على قومه القتل، وبيّن أنه لا ذنب إلا إيمانه بالله وهذا ليس ذنباً [22].

ت- ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾: فهل هذه الكلمة البريئة المتعلقة باعتقاد قلب، واقتناع نفس، تستحق القتل ويرد عليها بإزهاق روح؟ إنها في هذه الصورة فعلة منكرة بشعة ظاهرة القبح والبشاعة [23]، فتقدير الكلام بالإنكار عليهم في قتله واستقباحه لأمرين:

أما أولاً؛ فلأنه قائل بالتوحيد لله عزّ وجل، وأما ثانياً؛ فلأنه قد جاءكم بالمعجزات الواضحة في هدايتكم للخير [24]، وربما كان الإنكار بطريق الاستفهام في هذا السياق

([22]) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1431هـ/ 2010م، ص٢١٧.

([23]) في ظلال القرآن، (٥/٣٠٧٩).

([24]) بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1431هـ/ 2010م، ص٢١٧.

ألطف وقعاً على معاند متجبر من صيغة النهي بما توجبه حقيقته من إلزام واستعلاء، قد يؤدي إلى النفور [25].

– إيثار التعبير بالنكرة: ﴿رَجُلًا﴾ ليدل على عظمة موسى عليه السلام في الرجال حساً ومعنى وقد ذكر البلاغيّون أن من أعراض التنكير التعظيم والتهويل والتكثير لتليين قلوب المخاطبين واستدراجهم إلى الاعتراف بشناعة الفعلة والنظر إلى الموقف بمعزل عن الأشخاص، ليكون الحكم أقرب إلى الإنصاف والموضوعية [26].

وتعليل موجب قتلهم موسى عليه السلام بما ينافيه، لمزيد من التشنيع والإنكار لفعلة الإقدام على قتل نفس مجرّمة لأجل كلمة حقّة هي قوله: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وذلك لأنه ما زاد على أن قال:﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وجاء بالبينات، وذلك لا يوجب القتل البتّة [27].

وإضافة الربوبية إلى ضمير المتكلم المحكيّ عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّيَ﴾، دوّن ضمير المخاطبين إمعاناً في استدراجهم إلى النظر في الأمر وأنه لازال يتعلق بالمتكلم وحده والقصر بتعريف الطرفين: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ فيكون المعنى لا ربّ لي إلا الله سبحانه وتعالى وفيه تعريض بمن اتخذ فرعون ربّاً مع أنه عبد حقير [28]، كما أن فيه دلالة على أن فرعون لم يسع إلى قتله إلا انتصاراً لنفسه ودفاعاً عن ملكه وبغيه.

وقد ذكرهم بأن موسى عليه السلام جاء بكلمة الحق ومعه بيّنات ومعجزات لصدقه يصعب أن يماروا فيها، فقد عهدوها وشهدوها وعمّتهم آثارها النافعة من عند

([25]) المصدر السابق، ص٢١٧.

([26]) المصدر نفسه، ص٢١٨.

([27]) المصدر نفسه، ص٢١٨.

([28]) المصدر نفسه، ص٢١٨.

ربهم لا ربّه وحده، وبذلك خطا بهم خطوة أخرى لبيان سمة أخرى تستدعي التفكير في قرارهم، وهو استدراج لهم إلى الاعتراف لتلبيس قلوبهم، وكسر إرادتهم [29].

ث- ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: لأن بينته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير أي: فهذا لا يوجب قتله، فهلا أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم: هل يحل قتله إذا ظهرتم عليه بالحجة أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق كثيرة [30].

- وفي قوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾: إضافة صفة الربوبية إلى ضمير المخاطبين ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بعد ذكر البيّنات بعد أن هيّأ نفوسهم للقبول في حين كانت البداية بإضافتها إلى ضمير المتكلم المحكيّ عن موسى ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ففي الإضافة إلى ضمير المخاطبين استنزال لهم عن المكابرة استدراجاً إلى الاعتراف بالله رباً لهم وليس لموسى عليه السلام وحده، فهو ربهم لا إحسان عندهم إلا منه، فكما أن ربوبيته لموسى عليه السلام اقتضت منه الاعتراف ينبغي أن تكون ربوبيته لهم داعية إلى ذلك، ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل بأي حالة قدرت.

ج- ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾:

أي: موسى بين أمرين، إما كاذباً في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لابد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم وهو

([29]) المصدر نفسه، ص٢١٩.

([30]) تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، السعودية، الدمام، دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ، (١٥٤٧/٤).

عذاب الدنيا، وهذا من حسن عقله ولطف دفعه عن موسى عليه السلام حيث أتي بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم [31].

ونلاحظ أن مؤمن آل فرعون سلك مع قومه مسلكاً في منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام [32]، وبنى كلامه على مسلّمة أن كل إنسان يتحمل تبعة عمله، ويجني عاقبته وتتآزر اللطائف البيانية فيها لإبراز بلاغة الحجة ودعم أسلوب الاستدراج، ثم انتقل بعد ذلك إلى التهديد من طرف خفي وانتقل إلى أمر أعلى منتهزاً سانحة التقسيم والحديث عن موسى ليقول كلاماً يحتمل الوعد والوعيد بطريق الإنصاف فينطبق على موسى عليه السلام كما ينطبق على قومه [33].

ح- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه إلى أمر أعلى من ذلك وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل.

- ﴿كَذَّابٌ﴾: بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله ولا يوفقه للصراط المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية، فالذي اهتدي هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه [34].

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: وهذا عام وأن الكذاب من أهل الضلالة وليس من أهل الهدى وهذا ينطبق

([31]) تفسير السعدي، (١٥٤٧/٤).

([32]) في ظلال القرآن، (٣٠٧٩/٥).

([33]) بلاغة الاحتجاج العقلي، ص٢٢٠.

([34]) تفسير السعدي، (١٥٤٧/٤).

على كل مسرف كذاب، وليس ذماً في أحد، ولكن فيه معنى آخر هو أن الذي جاء بالبينات من ربه هو مهتد لأن القاعدة أن الله لا يهدي من جميع هاتين الخسيستين الإسراف الذي منه التهديد بالقتل والكذب منه أن يظهر في الأرض الفساد وهو بهذا فرغ من بيان الموقف الذي يوجبه العقل مع موسى عليه السلام وذكرت أن بعض المفسرين ذكروا أنه هو الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ويقول لموسى عليه السلام إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك، وربما كان من الذين ألفوا موسى وألفهم في بيت فرعون، وهذا شيء آخر وإنما نحن الآن مع رجل مؤمن يدافع عن الإيمان وعن الذي جاء بالبينات من ربه، وهو مع موسى عليه السلام يشبه سيدنا أبو بكر مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤمن ومحب [35].

مقارنة بين مؤمن آل فرعون وأبي بكر الصديق رضي الله عنه:

وقد لاحظ الإمام البخاري ذلك في كتاب التفسير من صحيحه في باب تفسير سورة المؤمن، وأورد حديث بيّن فيه موقف أبي بكر رضي الله عنه في الدفاع عن رسول الله ﷺ، فروى بسنده عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر، فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [36].

([35]) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1442هـ/ 2021م، ص٤٧٩.

([36]) البخاري، رقم ٤٨١٥، ك التفسير.

وقد فضل علي بن أبي طالب أبا بكر على مؤمن آل فرعون رضي الله عنهم، فقد خطب ذات يوم الناس فقال: من أشجع الناس؟ قالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أما أني ما بارزني أحد إلا انتصفت منه، ولكن أشجع الناس هو أبو بكر، إنا جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً، فقلنا: من يكون مع رسول الله ﷺ لئلا يهوي عليه أحدٌ من المشركين؟ فو الله ما دنا منه أحدٌ إلا أبو بكر، شاهراً بالسيف على رأس رسول الله ﷺ، لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه، فهذا أشجع النَّاس! ثم قال: ولقد رأيت رسول الله ﷺ وقد أخذته قريش، فهذا يحادّه وهذا يتلتله ويقولون: أنت جعلت الآلهة إلهاً واحداً؟ فو الله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر، يضرب هذا ويجاهد هذا ويتلتل هذا وهو يقول: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ثم ردّ عليّ بردة كانت عليه، فبكى حتى أخضلت لحيته، ثم قال: أنشدكم الله: أمؤمن آل فرعون خير أم هو؟ فسكت القوم، فقال علي: فو الله لساعة مع أبي بكر خير من ملء الأرض من مؤمن آل فرعون، ذاك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه [37]. وممن كتم إيمانه وقام بمهام خاصة بتوجيه رسول الله وموافقته كل من:

– نُعيم بن مسعود لما أسلم وكتم إيمانه وأوقع بالخديعة بين قريش وغطفان من جهة وبين يهود بني قريظة، فقد استخدم النبي ﷺ سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فقد كان يعلم أن هناك تصدعاً خفيفاً بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستعمله في جانبه، فقد أطمع غطفان في ثمار المدينة ففكك عزمها والآن ساق المولى عزّ وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله ليعلن إسلامه ويقول له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت فينا رجل فخذل عنا إن

([37]) البداية والنهاية، الإمام أبي الفداء ابن كثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد، دمشق، دار ابن كثير، ط6، 2021م، (٣/٢٧١-٢٧٢).

استطعت، فإن الحرب خدعة، فقال نُعيم يزرع الشك بين الأطراف، وذلك بأمر من رسول الله ﷺ فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمناً لعودتهم إلى صلحهم وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم وتثبيط عزمهم وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

- أنه أخفى إسلامه على كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.
- أنه ذكّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير وبصّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إذ هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ، فكان هذا الأساس سبباً في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.
- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قاله، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب [38].

إن نعيم بن مسعود الغطفاني كتم إيمانه عن القوم الذين كانت تربطه بهم علاقة متينة قبل إسلامه مما ساعده ذلك النجاح في مهمته الخطيرة والتي ساهمت في فك الحصار عن المدينة في غزوة الأحزاب.

– وممن كتم إيمانه بمكة وقام بمهام خاصة عمّ النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلا شك أنه قد آمن برسول الله، لأنه ساعة أخذ العهد لرسول الله في بيعة العقبة الثانية وكان لم يعلن إسلامه بعد، ذهب للأنصار وقال: هذا محمد في متعة من

([38]) السيرة النبوية، علي الصلابي، المرجع السابق، (٢/٢٢٠).

قومه، فإن شئتم أن تأخذوه، فعاهدوا على كذا وكذا وإلا فاتركوه، فكيف يأخذ العهد لرسول الله وهو ما يزال على دين قريش [39]؟

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عين رسول الله ﷺ بمكة، يرقب تحركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحركت في غزوة أحد بجيشها إلى المدينة، بعث العباس رسالة عاجلة إلى النبي ﷺ ضمّنها جميع تفصيلات الجيش وأين رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجدّ في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة –التي تبلغ مسافتها خمسمائة كيلو متراً– في ثلاثة أيام وسلّم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء [40].

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمّه العباس، قال ابن عبد البر: وكان رضي الله عنه يكتب أخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يتقوّون بمكة وكان يحبّ أن يقدم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: أن مقامك في مكة خير [41].

٢– قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

وبعد أن خاطب مؤمن آل فرعون عقول قومه بموضوعية استثار مصالحهم الدنيوية ولمسهم لمسة مادية فقال لهم:

أ– ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾:

([39])تفسير الشعراوي، (١٣٣٦٤/٢١).

([40]) الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ت: 1427هـ)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007م، ص٢٥٠.

([41]) الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ابن عبد البر القرطبي المالكي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل، ط1، 1992م، (٨١٢/٢).

ذكرهم بملكهم وسلطانهم ورفاهيتهم في حياتهم، وحذّرهم من الأقدام عل قتل موسى بطريق غير مباشر وكأنه يقول لهم: اليوم لكم الملك، وأنتم ظاهرون في الأرض، منعمون فيها، فإذا قتلتم موسى وكان صادقاً في أنه نبي رسول الله، فماذا سيفعل الله بكم؟ إنه سينتصر لنبيه ويوقع بكم بأسه وعذابه فهل تقدرون على دفع العذاب عنكم؟ إنه لا يوجد أحد ينصرنا من بأس الله، ونلاحظ في كلمات هذا الداعية الحكيم أنه لم يوجّه كلامه لفرعون، وإنما وجّه كلامه للقوم، ولعلّ من أهدافه في ذلك ألا يبدأ "بيانه" في احتكاك مباشر مع فرعون، حتى لا يثيره والأهم من هذا أنه يريد أن يؤثر في القوم وأن يكسبهم إلى جانبه، فهم المقصودون في كلامه.

وكان قاصداً "تجاهل" فرعون وعدم مخاطبته لأنه لا يطمع في تغيير موقفه وكسبه إلى جانبه، ومن حرصه على التقرب إلى قومه، أشرك نفسه معهم في دفع ثمن قتل موسى واستقبال عذاب الله والعجز عن دفعه وذلك في قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ يقول لهم: أما واحد منكم، مصيرنا جميعاً واحد، فلنفكر معاً كيف نبتعد في بأس الله وعذابه [42].

– وفي قوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾: تحبب وتقرب إلى قومه، وهذه الآية فيها فقه سياسي وفي مجيئها بعد الآية التي قبلها دلالة على معنى جديد لأن التي قلبها هي الرفض القاطع لإنكار البينات، لأن البديل لإنكار البينات هو الظلم وأم الحصن الحصين الذي يحمي الملك هو الحق والعدل والانقياد للبينة، لأن البينة معنى عام قد تكون في الدين وقد تكون في العلم، وقد تكون في السياسة، ومن حصانة الملك ومن حمايته العدل والحق والإنصاف، إن مؤمن آل فرعون حذّر قومه من خطورة الظلم المتمثل في إنكار

([42]) القصص القرآني، (٢/٤٩٤).

البينات، وأن نتيجة الظلم وإنكار البينة هو ضياع هذا الملك، لأن الله لا يترك الطاغين وإنما ينزل بهم بأسه وإذا نزل بنا بأس الله فلن نجد عليه نصيراً [43].

لقد بيّن مؤمن آل فرعون لقومه بأن الله أنعم عليكم بهذا الملك والظهور في أرض مصر بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذا النعمة بشكر الله وتصديق رسوله عليه السلام واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله وأن هذه الجنود والعساكر لا تغني عنا شيئاً من بأس الله أن أرادنا بسوء [44].

إن الرجل المؤمن يشعر بما يشعر به القلب المؤمن من أن بأس الله أقرب ما يكون لأصحاب الملك والسلطان في الأرض، فهم أحق الناس بأن يحذروه وأجدر الناس بأن يحسوه ويتقوه وأن يبيتوا منه على وجل فهو يتربص بهم في كل لحظة من لحظات الليل والنهار ومن ثمّ يذكرهم بما هم فيه من الملك والسلطان ثم هو يجمل نفسه فيهم ويذكرهم ببأس الله ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ ليشعرهم أن أمرهم يهمه فهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم وهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم لعل هذا أن يجعلهم ينظرون إلى تحذيره باهتمام ويأخذونه مأخذ البراءة والإخلاص وهو يحاول أن يشعرهم أن بأس الله إن جاء فلا ناصر منه ولا مجير عليه وأنهم إزاءه ضعاف ضعاف[45].

لقد استخدم مؤمن آل فرعون المنهج العقلي في خطابه لقومه في الآية السابقة وفي هذه الآية وظف المنهج العاطفي في أسلوب مميز تحت جناح عاطفة القرابة الحميمة حيث جمع فيها مؤثرات نفسية ومؤثرات قيمية ومؤثرات حضارية، ومؤثرات

([43]) من حديث يوسف وموسى، ص٤٧٩.

([44]) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، المصدر السابق، (٣٤٢/٢٩).

([45]) في ظلال القرآن، (٣٠٧٩/٥)، وما بعدها.

عقدية وكل هذه المؤثرات تجذب وتستدر العاطفة لأنها تجمه التقارب بين الداعي والمدعو [46].

ومن المؤثرات التي استعملها في خطابه أيضاً: المؤثر الحضاري المتمثل في نعمة الملك ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فخوفهم من انتزاعه منهم لو أنهم تعرضوا لقتل موسى والتخويف في حد ذاته من أساليب التأثير العاطفي [47]، وكان فرعون حاضراً المشهد واستمع إلى كلمات الرجل المؤمن وأدرك فرعون أثرها على القوم وخشي أن ينجح المؤمن في التأثير فيهم وكسبهم إليه فاضطر فرعون إلى التدخل والتصريح بأن الحق لا يكون إلا معه ولهذا خاطبهم بمنتهى الاستعلاء والتكبر [48].

ب- قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

- قال ابن كثير: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ لقومه رادّاً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ أي: ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسي؛ وقد كذب فرعون، فإنه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]، فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كذب فيه وافترى، وخان الله ورسوله ورعيته، فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ أي: وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً في ذلك وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا

([46]) مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية، بشير علي أحمد الخياط، رسالة دكتوراه، السودان، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم درمان، 1432هـ/ 2011م، ص٣٤٠.

([47]) مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية، الخياط، المرجع السابق، ص ٣٤٢.

([48]) القصص القرآني، (٤٩٤/٢).

أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٩][49].

– قال الشنقيطي: وهذان الأمران اللذان ذكر الله تعال عن فرعون أنه قالهما في هذه الآية الكريمة، قد بيّن في آيات آخر أن فرعون كاذب في كل واحد منهما، أما الأول منهما وهو قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ فقد بين تعالى كذبه فيه في آيات من كتابه وأوضح فيها أنه يعلم ويتيقن أن الآيات التي جاءه بها موسى حق، وأنها ما أنزلها إلا الله، وأنه جحدها هو ومن استيقنها معه من قومه، ليستخفوا بها عقول الجهلة منهم، كقوله تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٢-١٤]، فقوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ دليل واضح على أن فرعون كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ وكقوله في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

فقول نبي الله موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مؤكداً إخباره بأن فرعون عالم بذلك القسم وقد دل أيضاً على أنه كاذب في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ وكان غرض فرعون بهذا الكذب التدليس والتمويه ليظن جهلة قومه أن معه الحق كما أشرا تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف:٥٤]، وأما الأمر الثاني وهو قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فقد بين كذبه فيه من آيات في كتابه كقوله تعالى:

([49]) تفسير ابن كثير، (٧/١٣١-١٣٢).

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [50].

- وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي: لاحظ منطق التسلط في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، ومنطق التزييف في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، لكن هذا من فرعون لم يمنع الرجل المؤمن أن يستمر في دعوته ولم يصدّه أن ينصح قومه [51]، فقد كان يرأى أن عليه أن يجدر وينصح ويبدي من الرأي ما يراه ويرى من الواجب أن عليه أن يقف إلى جوار الحق الذي يعتقده كائناً ما كان رأي الطغاة، ثم هو يطرق قلوبهم بإيقاع آخر لعلها تحسن وتستيقظ وترتعش وتلين قلوبهم على مصارع الأحزاب قبلهم وهي شاهدة ببأس الله في أخذ المكذبين والطغاة [52].

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [غافر: ٣٠-٣٣].

لم يلتفت الرجل المؤمن لفرعون، بل استمر في تجاهله له واستمر في توجيه كلامه للقوم مستخدماً لحقائق التاريخ:

أ- ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [غافر: ٣٠] أي: إني أخاف أن ينزل بكم مثل ما نزل بالأم المكذبة [53].

([50]) أضواء البيان، (٦/٣٨٥-٣٨٦).

([51]) تفسير الشعراوي، (٢١/١٣٣٦٩).

([52]) في ظلال القرآن، (٥/٣٠٨٠).

([53]) التفسير الموضوعي، (٧/١٣٢).

ب- ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة كيف حل بهم باس الله وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صادّ [54].

لقد لمس الرجل المؤمن قلوب قومه لمسة تاريخية، حيث ذكرهم بمن كان قبلهم من الأحزاب والأقوام الكافرة ودعاهم إلى التفكير بما جرى لهم، فلعلّ ذلك يدعوهم إلى تغيير موقفهم، إنه يصارحهم بخوفه عليهم من أن يعذبهم الله، كما عذّب قوم نوح وعاد والذين من بعدهم وما عليهم إلا أن يؤمنوا بالله لئلا يصيبهم ما أصابهم [55].

وقد استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ ومعرفته بتاريخ النبوات في تحذيره ونصحه لقومه وبين لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البينات وأن الله أغرق قوم نوح وأهلك عاداً بريح صرصر وأهلك ثمود بالطاغية وأن قوم فرعون لهم ثقافة دينية فذكرهم بها، ثم أن العلم بدأب قوم نوح، وعاد وثمود والذين من بعدهم هو الذي يفتح باب قلوبهم للآية الجليلة [56].

- ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾: وأنهم كانوا ظالمين لما رفضوا الآيات وظلموا الناس الذين حالوا بينهم وبين الآيات وظلموا أنفسهم [57].

لقد بين الله عزّ وجل على لسان مؤمن آل فرعون إنما أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره [58].

([54]) تفسير ابن كثير، (١٣٢/٧).

([55]) القصص القرآني، (٤٩٦/٢).

([56]) من حديث يوسف وموسى، ص ٤٨٣.

([57]) المصدر نفسه، ص٤٨٣.

([58]) تفسير ابن كثير، (١٣٢/٧).

والآية فيها إشارة إلى سنة من سنن الله الثابتة وإلى عدله المطلق ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ أي: لا يعذبهم بغير ذنب أذنبوه ولا جرم أسلفوه [59]، وهذا يعني أن تدميرهم كان عدلاً لأنهم استحقوه بأعمالهم وسنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة عدلاً منه [60].

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ يعني: أن عذاب الله ليس بمقصر على من تقدم من الأمم الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم بيّن أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد، فالآية تحذير من وخامة الظلم فلا يغتر الظالم بالإمهال وبالعودة إلى منطق الرجل يلحظ أن الظلم في قوله: ﴿ظُلْمًا﴾ نكرة ورد في سياق النفي والنكرة في سياق النفي تدل على العموم، وهذا إثبات لعدل الله المطلق الذي لا يماري فيه عاقل وهذا الأسلوب فيه ترهيب وفيه تطمين ودعوة [61].

ت- ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [غافر:٣٢]: وبعد أن لفت أنظارهم إلى الماضي انتقل بهم إلى المستقبل إلى الآخرة التي هم مقدمون عليها وصوّر لهم بعض ما ينتظرهم هناك من عذاب [62].

وفي ذلك اليوم ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ ينادي الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف وينادي أصحاب الأعراف على أصحاب الجنة وأصحاب النار، وينادي أصحاب الجنة على أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، فالتنادي واقع في صور شتى وتسميته

([59]) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١١.

([60]) المصدر نفسه، ص٢١٢.

([61]) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١٢.

([62]) القصص القرآني، (٤٩٦/٢).

﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ تلقي عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا وهناك، وتصور يوم زحام وخصام [63].

قال السعدي: لما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الأخروية فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي: يوم القيامة حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف:٤٤] إلى آخر الآيات.

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠]، وحين ينادي أهل النار مالكاً ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول: ﴿إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧]، وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧]وحين يقال للمشركين: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [القصص:٦٤]، فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك [64].

ث- ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر:٣٣]:

- ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: بأسلوب الترهيب التصويري لينقلهم إلى الآخرة في مشهد حي يصورهم وهم فارين مدبرين يطلبون النجاة والسلامة ويتطلعون إلى أي منقذ ينقذهم فلا يجدون في حين أن "صورة الفزع والفرار" هي أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين في الأرض، أصحاب الجاه والسلطان، أعداء الدعوة والإيمان [65].

([63]) في ظلال القرآن، (٥/٣٠٨٠).

([64]) تفسير السعدي، (٤/١٥٤٩).

([65]) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢١٣.

- ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾: لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه أحد: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ [الطارق:٩-١٠][66].

ج-﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾: لأن الهدى بيد الله، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به لخبثه فلا سبيل إلى هدايته [67]، وبعد أن لفت مؤمن آل فرعون قومه إلى المصير الأخروي وما فيه من إحياء بفساد ما هم عليه عقّب على ذلك بذكر سنة من سنن الله تتعلق بالهدى والضلال [68].

فجملة ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ معناها بعيد الغور، وسياقها في كلام هذا الصادق الذي لا يكذب قومه، يدل على بُعد غورها وأن مؤمن آل فرعون على درجة من الثقافة الدينية عالية وعلى استيعاب كبير لأصول دعوة الأنبياء والمرسلين وإيمان بها حقيقي وقناعة راسخة بدعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة، وقد بيّن في حديثه الماضي مجموعة من سنن الله الجارية.

- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

- ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾

وفي هذه الآية ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ حقيقة راسخة عند كل الموحدين وفي كل النبوات، والرجل المؤمن من آل فرعون يقولها وهو يدعو قومه إلى الهدى لأنه يعلم أن اليقين بأن من يضلل الله فما له من هاد، لا يجعلنا لا ندعو إلى الهدى، أولاً: لأننا لا نعرف من الذي أضلّه الله، ولأن الله علّمنا أن من طلب الهدى هداه الله، وأن من أناب إليه سبحانه فتح له باب رحمته، وأن الذي يضله الله وليس

([66]) تفسير السعدي، (١٥٤٩/٤).

([67]) تفسير السعدي، المصدر نفسه، (١٥٤٩/٤).

([68]) مؤمن آل فرعون، الخياط، ص٢١٥.

له هاد يهديه هو من رفض الهدى ورفض البينة والبرهان ورفض الحق وأصرّ على الباطل، وهذا بعد عور هذه السنة الربانية فلا يجوز للضال أن يقول: لو هداني الله لاهتديت، لأنك لا تعلم الغيب الذي هو علم الله، ولأن الله وعد ووعده الحق أن من مدّ يديه إلى الله لا يردهما الله صفراً حتى يضع فيها خيراً، وأن من تاب الله عليه وأن من ذكر الله ذكره الله وأن من سعى إلى الله شبراً سعى نحوه ذراعاً وأن الذي أعظم من الذنب أن تيأس من مغفرة الله للذنب، كل هذه وغيره مفهوم من قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ التي قالها مؤمن آل فرعون [69].

ولعل في الآية إشارة خفية إلى قول فرعون ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وتلميحاً بأن الهدى هدى الله وأن من أضله الله فلا هادي له والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال [70].

وبعد هذا ذكر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ومن ذريته، كان موسى -عليهما السلام- وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يكرروا الموقف من موسى وهو يصدق ما جاءهم به يوسف، فكانوا منه في شك وارتياب ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال [71].

([69]) من حديث يوسف وموسى، ص٤٨٦.

([70]) في ظلال القرآن، (٥/٣٠٨٠).

([71]) في ظلال القرآن، (٥/٣٠٨١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر:٣٤].

أ-قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: ولقد جاءكم بوسف بن يعقوب يا قوم من قبل موسى بالواضحات من حجج الله.

- وقوله: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ يقول: فلم تزالوا مرتابين فيما أتاكم به يوسف من عند ربكم غير موقني القلوب بحقيقته.

- ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ يقول: حتى إذا مات يوسف قلتم أيها القوم: لن يبعث الله من بعد بوسف إليكم رسولاً بالدعاء إلى الحق.

- ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ يقول: هكذا بصد الله عن إصابة الحق وقصد السبيل من هو كافر به مرتاب، شاكّ في حقيقة أخبار رسله [72].

ب- قال السعدي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب عليه السلام ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ إتيان موسى بالبينات الدالة على صدقه وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له.

- ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾ في حياته.

- ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد سكّكم وشرككم.

- ﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم ولا ينهاهم ويرسل إليهم رسله، والظن أن الله لا يرسل رسولاً ظنّ ضلال، ولهذا قال:

- ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾: وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلماً وعدواناً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله وكذبوا رسوله، فالذي وصفه بالسرف

([72]) تفسير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، الطبري، (٦٣/٢٤).

والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله ولا يوفقه للخير لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (73).

٥- قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

لما ذكر سبحانه وتعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ذكر وصف المسرف المرتاب فقال:

أ- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل وصارت من ظهروها بمنزلة الشمي للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبطلوها.

ب- ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً.

ت- ﴿كَبُرَ﴾: ذلك القول المتضمن لردّ الحق بالباطل.

ث- ﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: فالله أشد بغضه لصاحبه لأنه تضمن التكذيب بالحق، والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها وكذلك عباده المؤمنون يمقتونه على ذلك أشد المقت موافقة لربهم وهؤلاء خواص خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه.

ج- ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون.

---

(73) تفسير السعدي، (١٥٤٩/٤).

ح- ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: متكبر في نفسه على الحق بردّه وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه [74].

وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله: ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾: السلطان معناه الحجة والبرهان وليس هناك جدال في آيات الله سلطان، لأن آيات الله حجة وبرهان وسلطان فوق كل حجة، فوق كل برهان، وفوق كل سلطان ووجه ذكر هذا القيد هو إعظام وإكرام وتنويه بالبرهان والحجة [75]، والحجة والبرهان أصل الحق والعدل على هذه الأرض، والقرآن الكريم يعوّل كثيراً عليها، وأن الأصل في صلاح وإصلاح حياة أي شعب هو الانقياد والتسليم للحجة والبينة.

والحامي للحجة والبرهان في الشعوب هو القضاء العادل الذي ليس عليه سلطان إلا سلطان الحجة والبرهان، فإذا تخلّى القضاء عن ذلك لم بعد قضاء وتحوّلت حياة الشعوب إلى جحيم وغابة يأكل كبارها صغارها، والأنظمة الراشدة لا تحرص على شيء كحرصها على نزاهة القضاء فيها وتعده من أكبر مفاخرها وإذا رأيت القضاء في أي بلد تحت الطلب، فاعلم أنه تسلل إلى سدّة الحكم من ليسوا من أهلها وأسند الأمر إلى غير أهله، وسيدنا رسول الله قال لنا إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة وليس الواجب أن تكون الساعة التي هي القيامة، وإنما يمكن أن تكون ساعة الشعب الذي أسند فيه الأمر إلى غير أهله وأنه في طريقه إلى الفناء وإن بقي حياً يأكل ويشرب [76].

- وفي قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وفاعل كبُر ضمير يعود على الجدال المفهوم من يجادلون.

([74]) تفسير السعدي، (١٥٥٠/٤).

([75]) من حديث يوسف وموسى، ص٤٨٩.

([76]) المصدر نفسه، ص٤٩٠.

– و ﴿مَقْتًا﴾ تمييز، والمقت أشد الغضب، والتعبير بالاسم الموصول يشير إلى أن هناك ناساً معروفين بالجدال في آيات الله، وهم في زمن فرعون وفي زماننا وفي كل زمان، والجدال في آيات الله يورث مقت الله وهو أشد الغضب، وكلمة ﴿كَبُرَ﴾ تعني أنه ليس مقتاً فحسب، وإنما هو مما يقال فيه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾.

– وعطف ﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ أولاً فيه تكريم للذين آمنوا، ثم فيه أن الذي يغضب الله أشد الغضب، يغضب الذين آمنوا أشد الغضب، وأننا نكره من يكرههم الله، ونعادي من يعاديهم، ونحب من أحبهم الله، وإذا كان الحب في الله هو أصدق الحب فإن الكره في الله هو أصدق الكره، وأننا مع الله، نحب من أحب، ونكره من يكره ولاحظ أن هذا كلام ابن عم فرعون، وكان فرعون من أشد المجادلين في آيات الله، وأن هذا المؤمن يخاطب قومه بهذا الخطاب البيّن الواضح والرجل اتسع فقهه واتسع علمه [77]، واستوعب دعوة موسى عليه السلام وطريق الأنبياء والمرسلين وآمن بالله رباً وبموسى عليه السلام نبياً ورسولاً، وقال الدكتور محمد أبو موسى في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

كلمة ﴿كَذَلِكَ﴾ تكثر في كلام الله أكثر من كثرتها في أي كلام آخر، لأنه تشبيه وقياس القياس له شأن في دين الله، والكاف أداة تشبيه كما قلت وكما هو معروف، والمهم تحديد المشار إليه وهو هنا الجدال في آيات الله وما يفضي إليه من كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا بطبع الله والقلب الذي يطبع الله عليه لا يصل إليه حق مثل القلب الذي يختم الله عليه وإنما يطيع ربنا ويختم على قلوب الذين كفروا، والذي يستوي عندهم الإنذار وعدمه والنصح وعدمه، وهذا معناه أن الجدال في آيات الله من الطبع على القلوب التي لا ينفذ إليها حق.

([77]) من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، ص٤٨٩.

– وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾: الكليّة في الآية داخلة على القلوب، التي هي موضع الطبع وأن هذه القلوب التي هي موضع الطبع مضافة إلى متكبر موصوف بأنه جبار، وهذا يعني أنك لا توجد متكبراً جباراَ إلا وقد طبع على قلبه وأن الفهم والإدراك الصحيح لا يصل إلى قلب متكبر، وقد فُسر المتكبر هنا بأنه المتكبر على الحق والجبار، بالجبار في العصيان، وهذا هو النموذج المجادل في آيات الله ولا شك في أن الذين يقولون إن سماع سليمان لكلام النملة من الأساطير هم من الذين يجادلون في آيات الله وهم من الذين طبع الله على قلوبهم وإن كانوا يوصفون بأنهم مثقفون جداً ومتنوّرون ونخبة [78].

([78]) من حديث يوسف وموسى، ص٤٩١.

المبحث الثالث: مخادعة فرعونَ قومَه وإشغالُهم عن دعوة الرجل المؤمن:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [غافر:٣٦-٣٧].

بعد وصف فرعون بأنه متكبر جبار، أخبر الله تعالى عن عتوه وتمرده وافترائه في تكذيب موسى عليه السلام حتى بلغ به الأمر أن أمر وزيره ببناء قصرٍ عال منيف شاهق من الآجر، ليصعد به إلى السماء للاطلاع إلى إله موسى؛ قاصداً بذلك التحدي والتمويه والاستهزاء بموسى وإنكار رسالته [79]، توجه فرعون إلى وزيره هامان وطلب منه بناء صرح له ليبحث عن إله موسى في السماء.

١-قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ [غافر:٣٦] .

أ-﴿هَامَانُ﴾: وزير فرعون وهي شخصية متصلة باسم فرعون ومقربة منه وهو الذي أسند إليه فرعون بناء الصرح.

ب- ﴿ابْنِ لِي صَرْحًا﴾: قال الإمام الراغب عن الصرح: بيت عال مزوّق، سمي بذلك لكونه صرحاً خالصاً[80]، أي أن أساس معنى "الصرح" في اللغة هو الخالص الصافي الخالي من الشوائب والأشياء الغريبة، وسمي البناء العالي صرحاً لأنه قوي متماسك متين، وهذا دليل على خلوصه من الشوائب، فلو كان مخلوطاً بها لما كان

([79]) التفسير المنير، (١٢٢/٢٤).

([80]) المفردات، ص٤٨٢.

ثابتاً، وقد فصّلت سورة القصص مادة بناء الصرح ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾، لقد كان الصرح مصنوعاً من "اللّبن" أو الطوب وهو المصنوع من الطين وبعدما يجف الطين ويبس يحرق بالنار ليزداد متانة وتماسكاً [81].

ت- ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾: قال الإمام الراغب في معنى الأسباب: السبب: الحبل الذي يصعد به النخل وجمعه أسباب، وسُمي كل ما يتوصل به إلى شيء سبباً وعلى هذا قوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: لعلي أعرف الذرائع والأسباب الحادثة في السماء فأتوصل إلى معرفة ما يدعيه موسى [82]، لماذا تظاهر فرعون بالموضوعية والبحث؟ لأنه هزم أمام منطق الرجل المؤمن الحكيم، ما هو هدف فرعون من بناء الصرح؟

- يريد أن يصرف المدعوين عن القضية الأساسية التي دعا إليها الرجل المؤمن، كادوا أن يقتنعوا، وذلك ليشغلهم بأمر ثانوي خارج عما هم بصدده ويجري الحديث.

- يدل على أنه بلغ الغاية في الطغيان والفجور والاستخفاف بالعقول، ويدل على شدة خداعة إذ هو يريد أن يتوصل من وراء هذا القول إلى أنه ليس هناك إله سواه ولو كان هناك إله سواه لشاهده هو وغيره من الناس [83]، وهو بهذا يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما قاله من أن هناك إلهاً غير فرعون [84].

- يريد أن يجنح بفكر المدعوين فيفكرون في الصرح وكيف سيكون شكله وعرضه وطوله؟ ومن هم بنّاؤوه؟ فهو يطلب بنائه عالياً وبالأجر وهذا التوصيف يجعل

([81]) القصص القرآني، (٤٩٩/٢).

([82]) المصدر نفسه، (٤٩٩/٢)، المفردات، ص٣٩١.

([83]) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997 – 1998م، (٢٩٢/١٢).

([84]) تفسير القرآن العظيم، (٢٣٨/٦).

السامعين يتصورون الصرح تصوراً تخيليًاً، مما يجنح بخيالهم عن آيات الله وعن الآخرة وغيرها من الأمور مما كان الرجل المؤمن قد وصل إلى بنائها في أذهانهم.

– يريد أن تفقد حجة الرجل المؤمن عند المدعوين قوّتها وحيويتها، فهم الآن يفكرون بها لأنها حية في أذهانهم، لها دوافعها الإصلاحية التوعوية، أما إذا انشغلوا عنها ببناء الصرح فستفقد تلك الحيوية لتتحول إلى قضية نظرية جامدة باردة.

– يريد أن ينسيهم الدعوة والتفكير فيها باستخدام عامل الزمن، وبناء الصرح يتناسب مع هذه الحيلة، ففيه تأخير وتسويف وتطويل وانشغال، بل إن التطويل والتأخير مقصود من البناء بدليل أن الكلمات التي عرضت الأمر تساعد على تطويل المشهد ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ التطويل في تحول التراب إلى طين ثم الإيقاد على الطين بإشعال النار تحته ثم الانتظار حتى يتم حرق الطين ليصير آجراً، ثم استخدامه في بناء الصرح وبعد الانتهاء من عملية البناء المطولة يصعد فرعون بتمهل وبطء وهناك يبلغ أسباب السماوات وطرقها ويبحث فيها بحثاً متأنياً عن إله موسى، ثم بعود إلى الجماهير تنتظر نتيجة هذه الرحلة الفرعونية وسيمر عليهم الزمن الطويل وهم ينتظرون بحيث ينسون حجج الرجل المؤمن التي سمعوها وتأثروا بها [85].

– يريد أن يرهق الأمة مؤمنهم وكافرهم اقتصادياً بتحمل أعباء هذا البناء العظيم، قصداً في صرف الجميع عن دعوة الرجل المؤمن واشتغالهم بجمع ما يفرضه عليهم من إتاوات وضراب إن صح التعبير ويتحمل ما ينجم عنه من إهدار للمال العام على الناس من فقر وشظف عيش كما هي عادة محاربي الدعوات اليوم وصانعي الأزمات وعندما تتصور ما سينفق في بناء الصرح من أموال، وما يبذل له من طاقات وقدرات وما يضيع فيه من أوقات وهذه هي أهداف بنائه، نقف على صورة من استخفاف الطغاة بعقول الجماهير وانشغالهم بالتوافه لتنسى الحقائق وتضييعهم الأوقات والجهود

([85]) مؤمن آل فرعون، بشير الخياط، ص٢٢٨.

والطاقات فيما لا يقدم للناس خيراً ولا نفعاً، فكم وكم ينفقون من هذه الضروريات في مسرحيات هازلة عابثة، وكم يذهب من هذه المقومات إرضاءً لشهوات الطغاة [86].

٢- قوله تعالى: ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر:٣٧].

أ- ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾: أبواب السماوات وقيل طرق السماوات.

ب- ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾: وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى في أن الله عزّ وجل أرسله إليه.

ت- ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾: أي يضيعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى [87]، فزين له العمل السيء، فلم يزل الشيطان يزينه وهو يدعو إليه ويحسنه حتى رآه حسناً ودعا إليه وناظر فيه مناظرة المحقين وهو من أعظم المفسدين ﴿وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له.

ث- ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾:

- ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾: الذي أراد أن يكيد به الحق ويوهم به الناس أنه محق وأن موسى مبطل.

- ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيده إلا الشقاء في الدنيا والآخرة [88].

([86]) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

([87]) تفسير ابن كثير، (١٣٤/٧).

([88]) تفسير السعدي، (١٥٥٠/٤).

وتذكرنا مسرحية فرعون بما فعله رائد الفضاء الروسي السابق "غاغارين" حيث زيّف وحرّف وكذب وافترى على البحث والعلم، فهو ماركسي ملحد ينكر وجود الله، ولكنه لما صعد إلى السماء في سفينة الفضاء، أعجب بجمال الكون وتناسقه، فاستيقظت فطرته لحظة ونطق عبارة إيمانية لا إرادية وهو مبهور بإبداع الكون، فقال: لابد أن يكون لهذا الكون إله، وهذه العبارة إلغاء للماركسية من الجذور ولهذا ما أن هبط "غاغارين" إلى الأرض حتى اتصل به سادته مهددين متوعدين، وطلبوا منه تعديل تصريحه السابق فرضخ لهم، وأخبر الصحفيين قائلاً: لقد صعدت إلى السماء وذهبت أبحث عن الله، لكن لم أجده، وكان فرعون يريد أن يخرج بهذه النتيجة، يريد أن يقول للناس: لقد بنيت الصرح، وصعدت إلى السماء وبحثت فيها عن أدلة تشهد لموسى، وتثبت وجود الله وتمنيت أن أجدها، ولكني ما وجدت منها شيئاً وما وجدت الله في السماء ولذلك ليس لكم إله غيري وموسى كاذب في دعوته.

إذن لم يكن فرعون جاداً في البحث ولا في بناء الصرح؛ ولكنه هازل عابث ساخر، وكم سينفق وزيره هامان من أموال على بناء الصرح، وكم سيرصد له من ميزانية الأمة وكم سيوظف له من طاقات وقدرات الأمة، وهذا هو هدف فرعون المسرحيّ منه، وإن الطغاة الظالمين يقتدون بفرعون في هذه الملهاة المسرحية، حيث يقررون إنشاء مشاريع عديدة ويرصدون لها الأموال الكثيرة وينفقون فيها الطاقات والأوقات والجهود، وهدفهم هو إلهاءُ وإشغال الناس، وصرفهم عن الأمور الجدية النافعة [89].

وتدل لهجة فرعون على تراجعه أمام منطق الرجل المؤمن وبدا تراجعه في المطالب التالية:

([89]) القصص القرآني، (٥٠٢/٢).

– قال في السابق: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ والآن يتراجع عن هذا الطلب ويأمر ببناء الصرح بحجة البحث عن إله موسى.

– في السابق طلب من قومه الإذن له بقتل موسى، والآن يطلب من قومه الانتظار بحيادية، ليطلعهم على نتيجة بحثه في السماء.

– في السابق جزم بأن موسى عليه السلام ساحر كذاب والآن تراجع عن الجزم وعبّر بالظن فقال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾.

ويسجل تراجع فرعون لصالح الرجل المؤمن، ويدل على نجاحه في عرض حجته وخطاب قومه بحكمة وموضوعية، والآن رأى الرجل المؤمن أن الوقت قد حان للجهر بإيمانه ودعوة قومه إلى اتباعه بصراحة مجردة وليس بتلميح إشاري، فقد أوصل قومه الذين يخاطبهم منذ مدة إلى هذه النتيجة وقد دفع فرعون إلى التراجع العلني عن ما أراده، ثم هو يخشى أن ينشغل القوم ببناء الصرح، وينسوا دعوته وحجته وبيانه ولهذا يريد أن يسارع بتقديم الخلاصة لهم فبدأ بمصارحتهم بدعوتهم إلى اتباعه، وقدم لهم خلاصة دينه، وقارن لهم بين دعوته ودعوة فرعون وتحريده لفرعون من النفع والضر، وإقامة الحجة على قومه وإعلانه تفويضه أمره إلى الله ودلالة على ذلك [90]:

([90]) القصص القرآني، (٢/٥٠٤-٥٠٨).

المبحث الرابع: الدعوة التفصيلية لمؤمن آل فرعون:

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٣٨-٤٦].

هذا بقية كلام مؤمن آل فرعون، فإنه أعاد عليهم النصح مرة أخرى حينما رآهم يتمادون في كفرهم وبغيهم، ونادى قومه ثلاث مرات في المرة الأولى، دعاهم في الآيات السابقة إلى قبول الدين الذي دعا إليه موسى على سبيل الإجمال وفي المرتين الأخيرتين على سبيل التفضيل، فدعاهم إلى الإيمان بالله سبحانه طريق الرشاد، ثم حذرهم من الاغترار بالدنيا وحثهم على العمل للآخرة لدوامها وقارن بين دعوته لهم إلى الإيمان بالله تعالى طريق النجاة، وبين دعوتهم إلى عبادة الأصنام طريق النار، ثم أخبر سبحانه عن وقايته وعصمتهم من السوء الذي دبّروه له وإغراق آل فرعون وإدخالهم في جهنم يوم القيامة [91].

([91]) التفسير المنير، (١٢٨/٢٤).

١-قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٣٨] .

فقد سبق فرعون أن قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وهنا يقول الرجل المؤمن للقوم أنفسهم: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، وهذه المواجهة الصريحة منه لفرعون دليل على جرأته وشجاعته وحرصه على دعوته وتوكله على ربه لأنه لا يقف أمام فرعون هذه الموقف ولا يتحداه هذا التحدي، إلا رجل عظيم الإيمان كامل الاعتماد على الله، وعندما دعا القوم لاتباعه عرض الدعوة بلهجته المعهودة القائمة على الإشفاق والتحبب ﴿يَا قَوْمِ﴾.

وفرق كبير بين قول فرعون لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾، وبين قول الرجل المؤمن لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، والرجل صادق في قوله لقومه: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، بينما كان فرعون كاذباً في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [92].

لقد افتتح الرجل المؤمن دعوته لقومه يلفت نظرهم إلى حقيقة تتعلق به شخصياً وهي أنه على حق ويقف مع الحق ويدعو للحق، وبالتالي فالانقياد له يعني المضي قدماً إلى طريق مستقيم بعيداً عن مواطن الزلل والسقوط، وسعى موسى بهذا التركيز الشديد على قناعته الشخصية إلى استرعاء انتباههم لعله يأتيهم بما تتوق إليه نفوسهم، كيف لا وكل منهم يرغب في اتباع الحق ويتجنب قدر المستطاع طريق الغي والضلال، وفي الوقت الذي لاحظ له بوادر إقبال عليه وإصغاء إلى ما عنده أكمل حديثه [93]، وشرع في بيان دينه إلى قومه فبعد الإجمال انتقل إلى التفصيل في:

([92]) القصص القرآني، (٥٠٣/٢).

([93]) مؤمن آل فرعون؛ حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح، شفيع الماحي أحمد، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1420هـ/ 1999م، ص١١٩.

- ذم الدنيا وتصغير حالها.

- تعظيم الآخرة والاطلاع على حقيقتها.

- الموازنة بين دعوة موسى عليه السلام ودعوة فرعون [94]، وإليك تفصيل المجمل:

٢- قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٩].

وكلما بدأ بقوله يا قوم بدأ معنىً جديداً وله عنده أهمية، لأنه يلفت قومه إليه ويقترب منهم ليقتربوا من النصح الذي يسديه لهم ولاحظ جملة: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ وكيف بدأت بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ التي تدل على أن ما دخلت عليه مما لا يجهله جاهل، ولا ينكره منكر كأن هذا معنى شائع في الناس، المؤمن والكافر، لأن الكل يرى الكل وهو يموت ويترك ما يترك من ثراء ونعمة، ولم يعد يتمتع بها، ثم إن اسم الإشارة هنا مهم جداً، لأنه يحدد ما يريد أن يحكم عليه بأنه متاع، ويميزه أكمل تمييز، لأن الحكم عليها بأنها متاع يوجب أن تكون حاضرة حضوراً كأن العين تراها، لقوة تشبث الناس بها مع العلم بأنها متاع، وهذا البناء يخالف بناء الجملة الثانية التي ليست معلومة علم الجملة الأولى وهي:

- ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾: ليس كل أحد يعلم ذلك، بل إن هذا مما نجد أكثر الناس لا يؤمنون به، وأن آمن به المصريون زمن الفراعنة وأعدوا قبورهم إعداداً خاصاً لحياتهم الثانية، والمهم أن الرجل المؤمن أكّدها بأن ثم بالضمير ﴿هِيَ﴾ ثم جعلها داراً أي موضع إقامة دائمة، ما دمت حيّاً كدارك في الدنيا وأنت هناك لا تموت فهي دار الأبد ثم أضافها إلى القرار والمستقر الذي لا يتبدل ولا يتغير وهذا تدقيق عجيب [95].

([94]) مؤمن آل فرعون، شفيع الماحي أحمد، المرجع السابق، ص٢٤٣.

([95]) من حديث يوسف وموسى، ص٤٩٧.

أ- قال ابن كثير: ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الآخر، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه السلام فقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ أي: قليلة زائلة فانية عن قريب تذهب وتزول وتضمحل ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ أي: الدار التي لا زوال لها والانتقال منها، ولا مصير إلى غيرها، بل إما نعيم وإما جحيم [96].

ب- قال السعدي: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي محل الإقامة ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها [97].

٣- قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

أ- راجع النفي والاستثناء ودلالته القاطعة على أنه من عمل سيئة لا يزيد عقابه، ولا ينقص عن عمل السيئة، ووصف العقاب بأن مثلها، يعني مماثلاً ومساوياً لها، ولا يجوز أن يزيد حبّة خردل عن هذا المثل، والمحظور أن تزيد في عقاب المذنب؛ وليس من المحظور أن تنقص، لأن الخطأ في العفو أفضل من الخطأ في العقوبة، وتأمل كيف يرسم لنا ربنا طريق الحياة الأفضل، ثم إن العقوبة تكون على من عمل هو سيئة، وليس على من عمل غيره، فلا يعاقب من كان عضواً في جماعة، ولو كان عضواً في عصابة، وإنما على القضاء أن يحدد ما عمله، ولا يعاقب إلا على عمله لأن الله قال لنا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [فاطر:١٨].

([96]) تفسير ابن كثير، (١٣٤/٧).

([97]) تفسير السعدي، (١٥٥٠/٤).

- ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:٣٩].
- ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٨].

فالمسؤولية فردية، ولا يؤخذ أحد بذنب أحد، وهذا كله دلالة كلمة ﴿مَنْ عَمِلَ﴾، فلا بد أن يكون عمل ولا يعاقب على نيته، ثم يعاقب على الذي عمل، وليس ولده، ولا أخاه وأن هذا هو نظام خلافة الإنسان لله في الأرض، ثم راجع مرة ثانية كلمة ﴿عَمِلَ﴾ وأنها تنفي نفياً قاطعاً تلفيق التهمة لمن نرفضه، مهما كان بيننا وبينه من خصومة وبعد هذا التحديد القاطع في كلام هذا المؤمن الذي يصدق قومه النصح قابل هذا بقوله:

ب- ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾:

راجع وتأمل لتقف على شرف الكلام واعلم أن من وقوفك على شرفه؛ أن تدرك خفايا معانيه:

الأول: واو العطف التي تعطف عملاً صالحاً على عمل سيء وتجمع لك صورتين متقابلتين من أعمال البشر على هذه الأرض، هناك قال من عمل سيئة بالتنكير، أي أي سيئة، قلّت أو كثُرت، وهنا قال من عمل صالحاً، أي صالحاً قلّ أو كثُر، وضع بإزاء هذا التنكير قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]، وإنما قدم المؤمن عمل السيئة لأنه رأى قومه مغموسين في السيئة، فأراد أن يخلعهم منها وقدّم ربنا مثقال ذرة خيراً لأن الخير يقدم لشرفه، ثم قال من ذكر أو أنثى إشارة بالمساواة في الثواب والعقاب بين الذكر الأنثى ودفع الجميع لعمل الصالحات.

وسكت عن النساء في عمل السيئة إكراماً لهن، لأن السيئة من النساء أسوأ والكذب منهن أخطر، ثم ذكر الأصل الذي لا يعتد بالعمل الصالح إلا به وهو الإيمان [98].

- ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: جملة حالية اسمية وبالواو، وكل ذلك يدل على أنه وهو يزاول العمل الصالح زاوله وهو في حال الإيمان والتقرب إلى الله، وتخيل معي أن كل الشعب يزاول الأعمال التي تصلح بها البلاد وهو يتقرب إلى الله بهذه المزاولة، وحينئذ تكون قوة هذه الجماعة في الحق وليست في الباطل، ولن تكون طامعة في خيرات الشعوب ولن تحيك المؤامرات والصراعات، وإنما تكون سالمة مسالمة، صالحة مصلحة، فيزداد بها الثراء والخير والبر والمرحمة بين العباد؛ المسلم وغير المسلم، هؤلاء الذين يزاولون العمل الصالح بهذه الروح التي تستحضر الذي بيده الأمر، جوابهم وجزاؤهم أنهم يدخلون الجنة وهذه هي غاية الغايات، هي دار القرار [99].

ت- ﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: وبُني يرزقون للمجهول وأشار إلى أن الخير والرزق والعطاء يأتيهم من هنا ومن هنا، ثم ناهيك عن عطاء بغير حساب، من أكرم، من أعطى جل وتقدس، وراجع دلالة اسم الإشارة الذي للبعيد:

- في قوله: ﴿فَأُولَئِكَ﴾: ودلالته على بعد محلهم وبعد رتبتهم، ثم تقديم المسند إليه على الخير الفعلي ودلالة ذلك على التوكيد ثم مجيء المضارع الذي يستحضر الصورة من الغيب البعيد.

- في قوله: ﴿يَدْخُلُونَ﴾: وكأنك تراهم في عزّهم وعليائهم وكرامتهم وهم يدخلون، ثم مجيء مرة ثانية:

([98]) من حديث يوسف وموسى، المرجع السابق، ص٤٩٩.

([99]) من حديث يوسف وموسى، المرجع السابق، ص٤٩٩.

ث- قوله: ﴿يُرْزَقُونَ﴾: وهو رأس الجملة الحالية، وكيف كان الدخول مقترناً بحال الرزق بغير حساب، والأصل أن يكون الرزق بعد الدخول، وإنما هي المبادرة بتكريم الواحد الأحد لكرام عباده الذين فعلوا الصالحات وهم مؤمنون، وراجع مرة ثانية كلمة "من الصالحات"، واحذر أن تخصها بالصلاة والزكاة والذكر، لأن الله أطلقها وهو كل ما تصلح به حياة الناس؛ سواء في مصانعهم أو مدارسهم أو إعداد قوتهم، أو ما يحتاجون إليه من أي علم في الطب أو الهندسة أو الرياضة، أو ما شئت لأن القاعدة الفقهية هي أن كل علم تحتاجه الأمة فهو من علوم الإسلام، وأن الطبيب الذي له فقه في طبّه أفضل من الفقيه الذي ليس له فقه في فقهه [100].

قال السعدي -رحمه الله-:

- ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾: من شرك أو فسوق أو عصيان.
- ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾: أي لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه بقدر إساءته وما تستحقه، لأن جزاء السيئة السوء.
- ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾: من أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان.
- ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عدّ، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم [101].

٤- قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر: ٤١-٤٢].

يقارن الرجل المؤمن بين الدعوتين بنفس اللهجة المحببة:

([100]) من حديث يوسف وموسى، المرجع نفسه، ص٥٠٠.

([101]) تفسير السعدي، (٤/١٥٥٠).

أ- ﴿وَيَا قَوْمِ﴾: ويبين لهما أنهما دعوتان اثنتان، لا ثالث لهما، فإما دعوة إلى الإيمان والخير، وهي دعوته الموجهة لهم وإما دعوة إلى الكفر والشر، وهي دعوة فرعون الموجهة لهم.

ب- ﴿مَا لِي﴾: يستفهم عن شيء من نفسه: كيف أدعوكم إلى النجاة وأنتم تدعونني إلى النار؟ أي إلى ما يؤدي إلى النار، قالوا: لأن الخير لا يكون خيراً إلا إذا أحببته لسواك، لذلك قال ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" (102).

ت- ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾: ويقارن بين حبه لهم وحبه لنجاتهم، وحبّه لأن يعيشوا في جنة وهم يدعونه إلى النار، ثم استأنف بيان هذه الجملة الموجزة العالية وابتدأ هذا البيان بكلمة ﴿تَدْعُونَنِي﴾ التي حملت المقارنة المحزنة والمؤسفة بينه وبين قومه.

ث- ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾:

وراجع أنه قال أولاً أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار، فقدم دعوته لهم إلى النجاة "الجنة" وأخّر دعوتهم له إلى النار، وفي الجملة الثانية عكس وكأنه لما قال الجملة الأولى علا وغلا، وفي قلبه الإحساس بإساءة قومه له، فقدم دعوته له إلى النار، وأنهم دعوه ليكفر بالله، ولم يُدْع المؤمن الصادق دعوة أسوأ من هذه الدعوة، لأن إيمانه بالله ليس هو نفسه، وقلبه وعقله، ولحمه، ودمه، وإنما هو فوق ذلك كله: أن يكون الله ورسوله أحب إليك من نفسك.

- ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾: كان يمكن أن يكتفي بهاتين الجملتين أكفر وأشرك، وكلمة ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ كلمة مفهومة لأنه ليس هناك مؤمن بالله وله

---

(102) تفسير الشعراوي، (١٣٣٨٦/٢١).

علم بشريك، لأنه لا شريك له، ونفي العلم بالشريك نفي لوجوده، قلت كان يمكن أن يكتفي ببعض ذلك، لأن بعضه دال على بعضه ولكن الرجل الصادق كأنه يُفرغ من قومه الذين يجبهم مرارة حارقة في قلبه، ثم استأنف استئنافاً آخر وأعاد كلمة:

- ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾: وجعل دعوته هي فاصلة الآية ليبقى رنينها في القلوب، وقد ابتدأ الجملة بقوله: ﴿وَأَنَا﴾ وكأنه يقول وأنا الذي تدعونه ليكفر بالله ويشرك به ما ليس له به علم، ويدعوكم إلى العزيز الغفار، وأحب اقتران الاسمين الجليلين في الفاصلة، لأن لها دلالة جليلة، فالعزيز الغالب الذي لا يُغلب والذي يستحيل أن يكون له شريك، والغالب المستعلي على من يكفر به فضلاً عن أن يكون داعياً للكفر فضلاً أيضاً إلى الكفر من يدعوه إلى الإيمان [103].

تجد كلمة العزيز يستخرج منها موقعها هنا إشارات ودلالات لا تشبع منها قلوب أهل الإيمان والبيان [104]، ثم تجد الغفار يفتح الأبواب على مصارعها لمن يريد أن يتوب ويؤوب إلى الغفار بصيغة المبالغة والتعريف بالألف واللام [105]، لقد رغبهم مؤمن آل فرعون في الإيمان بالله عزّ وجل وبين لهم بأنه عزيز غفار، يقبل توبتهم إليه وإقبالهم عليه [106].

لقد لخص مؤمن آل فرعون دعوته الحكيمة في قوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾؛ إنه دعاهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره، دعاهم ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر لهم وقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شيء، وليس لهم شأن في دنيا ولا

([103]) من حديث يوسف وموسى، ص٥٠٥.

([104]) المصدر نفسه، ص٥٠٥.

([105]) المصدر نفسه، ص٥٠٥.

([106]) القصص القرآني، (٥٠٦/٢).

في آخرة، وأن المردّ لله وحده وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار [107].

٥- قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٤٣].

وبعدما قارن المؤمن بين دعوته ودعوة فرعون، خطا خطوة أخرى في التصدي لفرعون ودعوة القوم إلى عدم الخوف منه.

أ-فقال لهم ﴿لَا جَرَمَ﴾: حقاً وصدقاً [108]، ويقيناً [109]، ولا شك ولا محالة [110].

ب- ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾: أي لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجوء إليه في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه وأنه لا يملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً [111].

يقول الدكتور الخالدي في تفسيره للآية: إنه يعني فرعون نفسه لأنهم كانوا يؤلهونه ويعبدونه من دون الله وكأنهم يدعون ذلك الرجل المؤمن إلى تأليهه وعبادته ودعائه والتضرع إليه، ويقول لهم: لا شك أن فرعون الذي تعبدونه وتدعونني لعبادته عاجز عن دفع الضر عن نفسه، أو جلب الخير له فإذا كان عاجزاً في حق نفسه فهو في حق غيره أكثر عجزاً لأنه مخلوق ضعيف، حتى لو كان ملكاً فرعوناً والضر والنفع إنما هما بيد الله وحده، الخالق القوي القادر الضار النافع.

هذا هو فرعون في نظر الرجل المؤمن، إنه لم يخدع بما أحاط به فرعون نفسه من مظاهر القوة وهالات العظمة، ولقد نظر إليه بمنظار الإيمان بالله واليقين بقوة الله،

([107]) في ظلال القرآن، (٣٠٨٣/٥).

([108]) القصص القرآني، (٥٠٦/٢).

([109]) تفسير السعدي، (١٥٥١/٤).

([110]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٨٧/٢١).

([111]) تفسير السعدي، (١٥٥١/٤).

فرآه على حقيقته ووزنه بميزان الإيمان، فعرف وزنه البشري الحقيقي وأظهر إيمانه وانتصر لموسى عليه السلام، وكأن الرجل المؤمن يدعو المؤمنين إلى الاقتداء به في هذا الموقف وأن ينظروا للطغاة بمنظار الإيمان ويزنوهم بميزان الإيمان؛ ليعرفوا حجمهم الحقيقي بدون مبالغة أو تهويل، فلا يرهبوهم ولا يتركوا الحق بسبب تهديدهم [112].

ت- ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾: وهذا المعتقد أي: مرجعنا ومصيرنا ونهاية المطاف إلى الله [113]، يُلجم النفس عن الباطل، والكذب والنفاق، وكل ما يورثها الخساسة والنذالة وتحدوها إلى كل عمل طيب وصالح ونافع ورافع للإنسان، وعليه أن يعقل بأنه مكرم عند الله ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ ولا يهين نفسه، وأن مرد الإنسان إلى ربه إذا كان أليفاً مألوفاً في القلب هان به كل صعب [114].

ث- ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾: وتفادى أن يجرح خاطر قومه وأن يقول لهم أنهم أصحاب النار، عمّم وقال إن المسرفين هم أصحاب النار والمسرفون هم المبالغون في المعاصي والمآسي والضلال [115]، والمسرفون هم: المتجاوزون للحد في الكفر والطغيان وأشدهم المسرف على نفسه الذي تجاوز الحد الذي ينبغي أن يقف عنده، وهذا الحد إما أن يكون في المأمورات أو في المنهيات [116].

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعدما كان يكتم إيمانه،

([112]) القصص القرآني، (٥٠٧/٢).

([113]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٨٧/٢١).

([114]) من حديث يوسف وموسى، ص ٥٠٦،٥٠٧.

([115]) من حديث يوسف وموسى، ص٥٠٧.

([116]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٨٧/٢١).

فأعلن عنه هذا الإعلان، لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله وقد قال كلمته وأراح ضميره [117].

ولا بد أن فرعون قد غضب من كلام الرجل المؤمن، وضاق به ذرعاً، فأصدر أوامره لجنوده لإسكاته والتخلص منه وقد أحسّ الرجل بذلك، ورأى أن ثمّة تدابير ومكايد تدبّر له، فألقى كلمته الأخيرة، فوّض بها أمره إلى الله واستعاذ بها من مكرهم وكيدهم [118].

٦- قال تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر: ٤٤-٤٥] .

أ- ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾: وهذا التذكر يكون في المستقبل في الدنيا والآخرة، فإن استجابوا له وآمنوا، حققوا ثمرة الإيمان في الدنيا وفي الآخرة وعندها يتذكرون ما قاله لهم، فيشكرونه على دعوته، وإن رفضوا دعوته وأصرّوا على الكفر، فسيدفعون ثمن ذلك غالياً في الدنيا والآخرة وعندها يتحسرون ويندمون لرفضهم دعوته وقوله: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ ليس تهديداً لهم وإنما هو نصيحة وتذكير وهو وسيلة أخرى من وسائل التأثير عليهم وكأنه يقول لهم: إذا اخترتم طريق الكفر ووقعت بكم عاقبة ذلك، فلا تلوموني، ولوموا أنفسكم [119].

ب- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ أي: أرد أمري إليه سبحانه، فهو وليّي، فإن كنت قد بليت بأمر نتيجة ما أفضت فيه من شرح منهج الله والدفاع

([117]) في ظلال القرآن، (٣٠٨٣/٥).

([118]) التفسير الموضوعي، (٣١٦/٧).

([119]) القصص القرآني، (٥٠٨/٢).

عن نبيه موسى والاستماع إلى المنهج الحق والسير عليه فأرجو أن يعطيني من العمل ما ينفعني في الآخرة [120].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة دليل واضح على أن التوكل الصادق وتفويض الأمور إليه سبب للحفظ والوقاية من كل سوء، وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف التعليل كقولهم: سها فسجد، أي سجد لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده كما قدمنا مراراً، وما تضمنته هذه الآية الكريمة من كون التوكل على الله سبب للحفظ والوقاية من السوء جاء مبيناً في آيات آخر:

- كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

- وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤][121].

- ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾: أي ألجأ إليه وأعتصم به وألقي أموري كلها لديه وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم [122].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيئته، فإن سلطكم عليّ فبحكمة منه تعالى وعن إرادته ومشيئته صدر ذلك [123].

- ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾: إنه تعالى بصير بأحوال عباده، يعلم من يستحق النصرة فينصره ويؤيده، ويعلم من يستحق الخذلان فيخذله ويضله [124].

([120]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٨٨/٢١).

([121]) أضواء البيان، (٣٨٨/٦).

([122]) تفسير السعدي، (١٥٥١/٤).

([123]) تفسير السعدي، (١٥٥١/٤).

([124]) التفسير الموضوعي، (٣١٦/٧).

ت- ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٥].

دلت هذه الآية الكريمة على أن فرعون وقومه أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن الكريم وأن الله وقاه، أي حفظه ونجاه من أضرار مكرهم وشدائده بسبب توكله على الله، وتفويضه أمره إليه [125].

- وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ معناه أنهم لما أرادوا أن يمكروا بهذا المؤمن وقاه الله مكرهم ورد العاقبة السيئة عليهم، فردّ سوء مكرهم إليهم، فكان المؤمن المذكر ناجياً في الدنيا والآخرة وكان فرعون وقومه هالكين في الدنيا والآخرة والبرزخ، فقال في هلاكهم في الدنيا ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ [الأنفال:٥٤] الآية وأمثالها من الآيات، وقال في مصيرهم في البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وقال في عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، وما دلّت عليه هذه الآية الكريمة من حيق المكر السيء بالماكر أوضحه تعالى في قوله: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣][126].

- قال السعدي: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي: وقى الله القوي ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له، من أراد إهلاكه وإتلافه، لأنه بدأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه فأرادوا به كيداً فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم على أنفسهم ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أغرقهم الله تعالى في صيحة واحدة عن آخرهم [127].

([125]) التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، (٣٦٥/٢٩).

([126]) أضواء البيان، (٣٨٨/٦-٣٨٩).

([127]) تفسير السعدي، (١٥٥٧/٤).

وهذه الآية وقف عندها الإمام جعفر الصادق واستنبط منها بعض اللطائف والحكم حين قال:

– عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] لأني سمعت الله يعقبها بقول:﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [آل عمران:١٧٤].

– وعجبت لمن مكر له ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر:٤٤]، فإني سمعت الله يعقبها بقول: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر:٤٥] .

– وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾[الكهف:٣٩]، فإني سمعت الله يعقبها بقول: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف:٤٠].

– وعجبت لمن اغتم –والاغتمام انقباض الصدر وضيق النفس دون أن تعرف له سبباً ولم يفزع إلى قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]فإني سمعت الله يعقبها بقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٨][128]، يعني: ليست خاصة به وحده.

قال محمد متولي الشعراوي: هذه من دقائق كتاب الله ولطائفه، ومن أخذها ورداً له لا يمر به شيء من هذا ونجّاه الله منه ووقاه من الخوف ومن المكر ومن الفقر ومن الغم، ثم إن استجابة الحق سبحانه لعبده المؤمن لم تقف عند حد الوقاية من عدوه، إنما تعدّت إلى العدو نفسه حيق انقلب الحال، ودارت الدائرة عليه، تأمل: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، والمراد عذاب الدنيا قبل الآخرة، لأن الإنسان له في حياته ثلاث مراحل:

– الحياة الدنيا التي نعيشها الآن.

([128]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٩١/٢١).

- ثم حياة البرزخ بعد أن يموت إلى أن يبعث يوم القيامة.
- ثم حياته بعد البعث [129].

٧- قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

أي: يعرضون على النار غدواً وغشياً في أول النهار وآخره ما دامت الدنيا، فإذا قامت الساعة قيل لخزنة جهنم: أدخلوا آل فرعون أشد العذاب، وهذه الآية دليل على عذاب القبر كما قال العلماء [130].

قال الرازي: احتج بهذه الآية على إثبات عذاب القبر، فالآية تقتضي عرض النار عليهم غدواً وعشياً وليس المراد منه يوم القيامة لأنه قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ وليس المراد منه الدنيا، لأن عرض النار عليهم غدواً وعشياً ما كان حاصلاً في الدنيا، فثبت أن هذا العرض إنما حصل بعد الموت وقبل يوم القيامة، وذلك يدل على عذاب القبر في حق هؤلاء [131].

وقد بوّب الإمام البخاري في صحيحه باب ما جاء في عذاب القبر وذكر هذه الآية وأورد عدداً من الأحاديث منها:

أ-عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ صلّى صلاة إلا تعوّذ من عذاب القبر، زاد في رواية: عذاب القبر حق [132].

([129]) تفسير الشعراوي، (١٣٣٩١/٢١).

([130]) التفسير الموضوعي، (٣١٧/٧).

([131]) مفاتيح الغيب، (٦٤/٢٧)، بتصرف.

([132]) البخاري، رقم ١٣٧٢.

ب- وعن موسى بن عقبة قال: سمعت أم خالد بنت خالد قالت: سمعت النبي يتعوذ من عذاب القبر [133]، وعن مصعب بن سعد قال: كان سعد يأمر بخمس ويذكرهن من النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بهن: اللهم إني أعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر [134].

ت- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: اطلع النبي ﷺ على أهل القليب [135]، فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فقيل له: تدعو أمواتاً؟ فقال: ما أنتم بأسمع منهم، ولكنهم لا يجيبون [136].

قال القسطلاني: هذا يدل على وجود حياة في القبر يصلح معها التعذيب، لأنه لما ثبت سماع أهل القليب كلامه عليه الصلاة والسلام وتوبيخه لهم دلّ على إدراكهم الكلام بحاسة السمع، وعلى جواز إدراكهم ألم العذاب ببقية الحواس، بل بالذات [137].

ث- وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه قالت: قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة [138]، قال النووي: فيه إثبات عذاب القبر وفتنته وهو مذهب أهل الحق [139].

([133]) البخاري، رقم ١٣٦٤.

([134]) البخاري، رقم ٦٣٦٥.

([135]) القليب: البئر التي لم تطوَ، يذكر ويؤنث.

([136]) مسلم، (٦٤٣/٢).

([137]) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن أبي بكر شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، 1996م، (٥٢٩/٣).

([138]) البخاري، رقم ٦٣٦٥.

([139]) شرح مسلم، (١٨٢/٦-١٨٣).

ج–وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه –وإنه ليسمع قرع نعالهم– أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ: فأما المؤمن فيقول، أشهد أنه عبد الله ورسوله فقال له: انظر إلى مقعدك من النار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس قال: وأما المنافق والكافر فيقال له: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين [140].

– قال ابن القيم: ومما ينبغي أن يعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيب منه، قُبر أن لم يُقبر، ولو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونُسف في الهواء، أو صُلب أو غرق في البحر وصل إلى روحه أنه من العذاب ما يصل إلى القبور [141].

– قال شيخ الإسلام ابن تيمية: فليعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً فيحصل له معها النعيم والعذاب [142].

– وذكر ابن أبي العز الحنفي أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ وجمه ما فيه من النعيم والعذاب، هو واقع على جميع البشر وإن اختلفت كيفيات موتهم من القتل والحرق

([140]) مسند أحمد، (١٢٦/٣)، البخاري، (٢٩٨/٣)، رقم ١٣٧٤.

([141]) الروح، شمس الدين ابن القيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1982م، ص٥٨.

([142]) مجموع الفتاوى، (٢٨٤/٤).

والتمزق وتناثر الأعضاء، سواء دُفنوا، أو لم يُدفنوا فهم يعيشون تلك الحياة، إما منعمين أو معذبين [143].

فيقول: واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه قُبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو صُلب أو أغرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذب ما يصل إلى المقبور [144].

وبين أيضاً أن الأرواح والأبدان يصيبها العذاب والنعيم في الدور الثالث كما قال: فالحاصل أن الدور ثلاث: دار الدنيا ودار البرزخ، ودار القرار، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً [145].

([143]) تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المدني: دراسة لغوية، صالح عبد الله منصور العولقي، اليمن، عدن، دراسات قرآنية في جامعة عدن، رسالة ماجستير، 2011م، ص٣٩٢.

([144]) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1990م، ص٣٩١.

([145]) شرح العقيدة الطحاوية، ص٣٩٢.

الخاتمة:

تمثل قصـــة مؤمن آل فرعون نموذجاً عظيماً للرجل المؤمن الداعية إلى الله، الذي ضـحى بالجاه والمنصـب والأمن والأمان والمال والراحة والرفاهية في سـبيل الدفاع عن دعوة الحق التي آمن بها حقاً، وعمل بمقتضـاها، وجاهد مع موسـى عليه السـلام في الدفاع عنها بالحجج والبراهين العقلية المقنعة. وقد امتُحن هذا المؤمن واختبر، فكاد له قومه المكائد في سبيل إسقاطه والنيل منه وما يدعو إليه، ولكنّ الله وقاه شرّ ذلك كلّه، كما قال: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُـوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُـــونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِـــيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّـــاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَـــدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45، 46]، وقد أقسم الله تعالى أن العاقبة والنصر لرسالته ولأهل دعوته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: 171 – 173].

وفي الخاتمة، يمكن أن نذكر بعض النّتائج الّتي وصل إليها الكتاب على النحو الآتي:

1- أخبر القرآن عن مؤمن آل فرعون بأنه ﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، والوصف بالرجولة هنا وصف تكريم وتشريف ويراد بالرجولة المعنى المادي والمعنى النفسي.

2- عندما اضطر مؤمن آل فرعون للدفاع عن موسى عليه السلام والوقوف أمام فرعون، خطا خطوات منهجية في غاية الحكمة والترتيب والتخطيط، وقدّم "بياناً" دعوياً حكيماً، وتمكن من إحراج فرعون وهزيمته وأقام الحجة عليه وعلى قومه.

3- سلك الرجل المؤمن مع قومه مسلكاً في منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام، وبنى كلامه على مسلّمة أن كل إنسان يتحمل تبعة عمله، ويجني عاقبته وتتآزر اللطائف البيانية فيها لإبراز بلاغة الحجة ودعم أسلوب الاستدراج، ثم انتقل بعد ذلك إلى التهديد من طرف خفي وانتقل إلى أمر أعلى منتهزاً سانحة التقسيم والحديث عن موسى ليقول كلاماً يحتمل الوعد والوعيد بطريق الإنصاف فينطبق على موسى عليه السلام كما ينطبق على قومه

4- هناك كثير من أوجه الشبه بين قصة مؤمن آل فرعون وسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وفضل أبو بكر على مؤمن آل فرعون.

5- حذر مؤمن آل فرعون قومه من خطورة الظلم المتمثل في إنكار البينات، وأن نتيجة الظلم وإنكار البينة هو ضياع هذا الملك، لأن الله لا يترك الطاغين وإنما ينزل بهم بأسه وإذا نزل بنا بأس الله فلن نجد عليه نصيراً.

6- بيّن مؤمن آل فرعون لقومه بأن الله أنعم عليكم بهذا الملك والظهور في أرض مصر بالكلمة النافذة والجاه العريض، فراعوا هذا النعمة بشكر الله وتصديق رسوله عليه السلام واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله وأن هذه الجنود والعساكر لا تغني عنا شيئاً من بأس الله أن أرادنا بسوء.

7- استخدم مؤمن آل فرعون المنهج العقلي في خطابه لقومه، ووظف المنهج العاطفي في أسلوب مميز تحت جناح عاطفة القرابة الحميمة حيث جمع فيها مؤثرات نفسية ومؤثرات قيمية ومؤثرات حضارية، ومؤثرات عقدية وكل هذه المؤثرات تجذب وتستدر العاطفة لأنها تجمه التقارب بين الداعي والمدعو.

8- استخدم مؤمن آل فرعون علم التاريخ ومعرفته بتاريخ النبوات في تحذيره ونصحه لقومه وبين لهم ما حلّ بالأمم التي رفضت البينات وأن الله أغرق قوم نوح وأهلك عاداً بريح صرصر وأهلك ثمود بالطاغية وأن قوم فرعون لهم ثقافة

دينية فذكرهم بها، ثم أن العلم بدأب قوم نوح، وعاد وثمود والذين من بعدهم هو الذي يفتح باب قلوبهم للآية الجليلة.

9- كان مؤمن آل فرعون على درجة من الثقافة الدينية عالية وعلى استيعاب كبير لأصول دعوة الأنبياء والمرسلين وإيمان بها حقيقي وقناعة راسخة بدعوة موسى عليه السلام إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة.

10- ذكّر مؤمن آل فرعون قومه بموقفهم من يوسف ومن ذريته، كان موسى – عليهما السلام– وكيف وقفوا موقف الشك من رسالته وما جاءهم به من الآيات، فلا يكرروا الموقف من موسى وهو يصدق ما جاءهم به يوسف، فكانوا منه في شك وارتياب ويكذب ما جزموا به من أن الله لن يبعث من بعده رسولاً، وها هو ذا موسى يجيء على فترة من يوسف ويكذب هذا المقال.

11- لقد لخص مؤمن آل فرعون دعوته الحكيمة في قوله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾؛ إنه دعاهم إلى إله واحد تشهد آثاره في الوجود بوحدانيته وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره.

12- لم ينتصح فرعون وقومه لا بموسى ولا بهارون عليهم السلام ولا بمؤمن آل فرعون، وأصرّوا على التكذيب، واتبعوا أمر فرعون فكان عاقبة أمرهم كسائر المكذبين، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم عبرة لمن يعتبر.

وبعد؛ فهذا ما يسره الله لي من جمع وترتيب وتحليل تضمنتها مباحث هذا الكتيّب، فما كان فيه من صواب فهو محض فضل الله عليَّ فله الحمد حتى يرضى، وله الحمد عند الرضى، وله الحمد بعد الرضى، وما كان فيه من خطأ فأستغفر الله تعالى وأتوب إليه، والله ورسوله بريء منه، وعسى ألا أحرم من الأجر، وأدعو الله تعالى أن ينفع بهذا الكتيب إخواني المسلمين، وأن يذكرني من يقرأه في دعائه، فإن دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب مستجابة إن شاء الله

تعالى، وأختم بقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَـــبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

1. تصريف القول في القصص القرآني؛ دراسة بلاغية تحليلية لقصة موسى عليه السلام، محمَّد صافي المستغانمي، دار ابن كثير، بيروت، ط1، 2018.
2. القصص القرآني أهدافه وخصائصه ومنهج الكتابة فيه، سليمان الدقور، عَمان، دار النّفائس، 2018.
3. نخبة من علماء التّفسير وعلوم القرآن، بإشراف الدكتور مصطفى مسلم، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، كلّيّة الدّراسات، جامعة الشّارقة، د. ط، 1432 هـ/ 2011 م.
4. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة مصطفى الزحيلي، دمشق، دار الفكر المعاصر، ط2، 1418هـ/ 1998م.
5. تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (774هـ)، بيروت، دار ابن حزم، 1420هـ/ 2000م.
6. تفسير الشعراوي، محمد متولي الشعراوي، القاهرة، مكتبة الأسرة، ط1، 1992م.
7. القصص القرآني؛ عرض وقائع وتحليل أحداث، صلاح الخالدي، دمشق، دار القلم، ط4، 2016م.
8. من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1442هـ/ 2021م.

9. في ظلال القرآن، سيد إبراهيم قطب، القاهرة، دار الشروق، ط32، 1423هـ/ 2003م.
10. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي (ت، 1393هـ)، جدة، السعودية، مجمع الفقه الإسلامي، دار علم الفوائد، (د. ت).
11. مفاتح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي (606هـ)، تحقيق: سيد عمران، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1420هـ، ودار الكتب العلمية، 2020م.
12. مسند أحمد، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب أرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 2008م.
13. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن محمد البكري الصديقي الشافعي (ت: 1057هـ)، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ط4، 2004م.
14. التدبر والبيان في تفسير القرآن بصحيح السنن، أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط1، 1435هـ/ 2014م.
15. بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1431هـ/ 2010م.
16. بلاغة الاحتجاج العقلي في القرآن الكريم، زينب بنت عبد اللطيف الكردي، تحقيق: محمد بن علي الصامل، السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1431هـ/ 2010م.

17. تفسير السعدي (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، السعودية، الدمام، دار ابن الجوزي، ط4، 1435هـ.
18. من حديث يوسف وموسى في الذكر الحكيم، محمد محمد أبو موسى، القاهرة، مكتبة وهبة، ط1، 1442هـ/ 2021م.
19. البداية والنهاية، الإمام أبي الفداء ابن كثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد، دمشق، دار ابن كثير، ط6، 2021م، (٣/٢٧١-٢٧٢).
20. الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (ت: 1427هـ)، قطر، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 2007م.
21. الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ابن عبد البر القرطبي المالكي، تحقيق: محمد علي البجاوي، دار الجيل، ط1، 1992م.
22. مؤمن آل فرعون؛ دراسة دعوية تحليلية، بشير علي أحمد الخياط، رسالة دكتوراه، السودان، كلية الدعوة الإسلامية في جامعة أم درمان، 1432هـ/ 2011م.
23. التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1997 – 1998م.
24. مؤمن آل فرعون؛ حفيد المرأة الكاملة وابن الرجل الصالح، شفيع الماحي أحمد، بيروت، دار ابن حزم، ط1، 1420هـ/ 1999م.
25. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن أبي بكر شهاب الدين القسطلاني، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي، 1996م.
26. الروح، شمس الدين ابن القيم الجوزية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1982م.

27. تنوع خطاب القرآن الكريم في العهد المدني: دراسة لغوية، صالح عبد الله منصور العولقي، اليمن، عدن، دراسات قرآنية في جامعة عدن، رسالة ماجستير، 2011م.
28. شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1990م.

فهرس الموضوعات

الإهداء 3

مقدمة الكتاب 4

المبحث الأول:

الآيات الممهدة لذكر قصة مؤمن آل فرعون: 11

المبحث الثاني:

ذكر مؤمن آل فرعون وموعظته لقومه ومحاجته لهم بالبراهين والحجج المنطقية: ... 19

المبحث الثالث:

مخادعة فرعونَ قومَه وإشغالُهم عن دعوة الرجل المؤمن:..... 46

المبحث الرابع:

الدعوة التفصيلية لمؤمن آل فرعون:..... 52

الخاتمة: 71

المصادر والمراجع 75

فهرس الموضوعات 79

السيرة الذاتية للمؤلف 80

كتب صدرت للمؤلف..... 81

السيرة الذاتية للمؤلف

د. عَلي محمَّد محمَّد الصَّلَّابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام 1383 هـ - 1963م.

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام 1993م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام 1996م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القران الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبد الله بن الزبير.
17. عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القران في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول ﷺ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الآخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59. الأمير عبد القادر الجزائري.

60. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

61. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

62. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

63. أعلام التصوف السُني: "ثمانية أجزاء".

64. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

65. الجمهورية الطرابلسية (1918 – 1922) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

66. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

67. المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام): الحقيقة الكاملة.

68. قصة بدء الخلق وخلق آدم (عليه السلام)

69. نوح (عليه السلام) والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

70. إبراهيمُ خليل الله (عليه السلام): "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

71. موسى (عليه السلام) كليم الله.

72. موسى (عليه السلام) والخضر.

73. موسى (عليه السلام) في سورة طه.

74. موسى (عليه السلام) في سورة القصص.

75. موسى (عليه السلام) في سورة الشعراء.

76. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

77. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

78. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب – التداعيات).

79. سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

80. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

81. النبي الوزير يوسف الصديق (عليه السلام) من الابتلاء إلى التمكين.

82. ذكريات لا تنسى

83. الأنبياء الملوك داوود وسليمان (عليهما السلام) وهيكل سليمان المزعوم

84. لوط (عليه السلام) ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين